بين الحين والأمس

بين الحين والأمس

رواية

دعاء رشدي

تصميم الغلاف: محمد علي

تدقيق لغوي : محمود ربيع

رقم الإيداع: 2332 /2020

I.S.B.N:978- 977-6640-72-6

الطبعة الأولى2020م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

دعاء رشدي

بين الحين والأمس

رواية

إهداء

إلى كل من لا يجد لنفسه أحدًا يأويه أو يسانده ويبقى بجانبه...

إهداء لكل أحبتي وأقاربي، وكل من قابلته في حياتي في يومٍ من الأيام... أنا حقًا ممتنة للأيام المُرّة حتى قبل الأيام الحلوة.

لقد بدأ منذ أكثر من الآن

دلف إلى متجر الكتب مسرعًا حامدًا ربه أنه وصل قبل أن تشتد الزوبعة، توجّه مباشرة للموظف المسؤول عن المتجر:

- من فضلِكِ.. أين يمكنني أن أجدَ القسم الخاص بالتاريخ؟

رفعَت الموظفة عينَها من على المكتب؛ لتجد أمامها شابًا ثلاثينيًا، بهيّ المظهر، عريض المنكبين، ذا عينان سوداوان تحكِي أنه جاء من أصول شامية أو عربية.

- امم.. إنه الصف الثالث في الركن على اليمين.

- أوه... متشكر جدًا.

تخطّى الصفوف صفًا تلو الآخر، واستنتج أنه لا يوجد الكثير من الناس بداخل المتجر، عند قسم التاريخ وجد آنسة واقفة أمام بعض الكتب، بحث في الكتب عن الموضوع الذي يبحث عنه، ولكن اتّضحَ له من أسماء الكتب أنه لن يجد ما يريد؛ فتأفف بصوت منخفض: هل قطعتُ هذه المسافة في مثل هذا الجو؛ لكي لا أجد أي شيء.

- هل أستطيع مساعدتك؟

صدمَتهُ الفتاة الواقفة بصوت حاد.

- أعتقد... إنني...

- هل تبحث في موضوع معين؟

- أنا... كنت أريد كتابًا يتحدّث عن المشرق العربي والإمبراطورية الإسلامية.

- ثانية من فضلك.

أمسكَت بالسلّم وصعدت للرف القبل الأخير؛ فوجدَت كتابَين يتعلقان بنفس الموضوع؛ فناولته الكتابين ونزلت من السلم، فقابل وجهها وجهه بعض الشيء وتأمل ملامحها العربية الصريحة، وعينَيها الفامقتين وبشرتها السمراء.

- هل تريد شيئًا آخر؟.. قاطعته بصرامة.

- شكرًا.

توجّه لموظف المتجر وسدّد ثمنهما، ثم غادر.

***

الساعة الخامسة صباحًا، والمنبه يرن ليستيقظ هو بطريقة روتينية مملة، وينهض عن فراشة ليتذكر أنه ليس مشغولًا مبكرًا هكذا، فيفرّش أسنانه ويتوضأ، ثم يصلي ويحضّر لنفسه فُطورَه المعتاد ليتناوله، ثم يجلس على الأريكة المقابلة للتلفاز، ليرفع ساقيه على الطاولة واضعًا إحداهما على الأخرى، ويرفع الكتاب الذي اشتراه أمس أمام نظارته المستطيلة، وينغمس في القراءة.

لكنني لم أفهم شيئًا... لم أشعر أن هناك شيئًا غريبًا، وكأنني لم أرَ هذا من قبل، يبدو أن العيش مختلف عن القراءة حقًا، إنه علم مثير.

قرأ أكثر قليلًا، ثم ترك الكتاب من يده، وارتدى بدلته وغادر منزله للعمل.

- صباح الخير.

ألقى على طلابه بابتسامة.

- اليوم سنتحدث عن المركبات الكيميائية وكيفية صنعها.

مضَى الوقت وهو مندمج في الشرح.

- عند إضافة المادة أ للمادة ب ستلاحظ أنه نتج عنهم محلول لونه أحمر، وضع 2سم من مسحوق المادة ج..

مضَت عدة ساعات، وعند نهاية المحاضرة:

- هل لدى أحدكم أي استفسار؟

وقفَت فتاة سائلة بصوت منخفض:

- معذرة! لكن كيف أضمن أنه لن ينفجر عند إضافة المادة ج للمحلول الأحمر؟

ضحك الجميع؛ لتضيف هي:

- لقد رأيتُ شيئًا ما مماثلًا لذلك من قبل.

وتورّد وجه الأستاذ سائلًا:

- ما هو اسمك؟

أجابت بخجل:

- رقية.

- تأكدي يا رقية أنه لن ينفجر إذا وضعتِ الكمية المحدّدة، إلا إذا أردتِ أن تفجرّي شيئًا ما.

ضحك الجميع، وانصرف الأستاذ متوجهًا لحجرة مكتبه.

أنجز أوراقه الإدارية، وأخذ الملفات التي يحتاجها ثم خرج من المبنى وركب سيارته، ومضى إلى معمله الخاص.

دخل المعمل وسلم على موظفيه ومتدربيه، وارتدَى البالطو الأبيض الخاص به وقفازات يده والكمامة، ثم شرع في العمل مع مساعدة الطلبة المتدربين.

وهو يشرح للمتدربين كيفية تركيب مادتين أو أكثر مع بعض ممسكًا بدورقٍ بين سبابته وإبهامه، والماصة بيده الأخرى، ويقطُرُ قطرات من الماصة داخل الدورق، قاطعه صوتٌ من بعيد قائلًا:

- كيف أتأكد أنه عندما أقوم بصنعِه لن يحدث شيءٌ غريب؟

رفع عينيه عن القنينة متعجبًا:

- غريب! مثل ماذا يا رق..؟

أرخَى ساعديه متأملًا من يحدّثه... إنها فتاة المكتبة التي رآها بالأمس.

هو:

- تأكدي أنكَ ملتزمة بالمقاييس المحددة.

ثم رفع عينَه عنها محدثًا الكل:

- أعتقد أن هذه المادة لديها سمعة سيئة ويخافها الكل _ضحك الجميع_ لكن هناك دائمًا حدود سلامة متبعة، إذا تم الالتزام بها لن يحدث شيء سيء أبدًا.

بعدما أنهى الطبيب ما يودّ شرحه غادر الجميع إلا هو.

- ألن تذهب؟!

الانتعاشه طبيب زميله.

- لا.. سوف أبقى قليلًا.

- حسنًا... هذه الورقة الخاصة بصيانة المعمل الشهرية يجب أن توقعها.

- حسنا... هل وقّعتَ أنت؟

- نعم بالفعل!

أخذ قلمًا حبرًا من أمامه على المنضدة موقّعًا في ركن أسفل الصفحة "د. شهاب الدين محمود".

- تفضل.

- شكرًا... شهاب، هل أنت متفرغ غدًا؟

- أوه... مساءً فقط... لكن لمَ؟!

- هناك ندوة أنا من يعقدُها غدًا.

- أوه... لقد نسيتُ أن غدًا هو يوم 7 بالفعل... لا تؤاخذني.

- لا مشكلة، لكن.. هل ستأتي؟

- هل تريدني أن أفعل؟

ابتسم له بإغراء.

- بالطبع! وجودك يهمني جدًا.

- امممم... موافق.

قال مبتسمًا:

- أراكَ في السابعة والنصف في مسرح منتصف المدينة.

أردَف وهو يربُت على كتفه مغادرًا.

تأكد شهاب من مغادرة كمال وذهب لاستكمال عمله مخرجًا ورقة فارغة من حقيبته، وشرع في كتابة حروف عبرية قديمة تبدو لمن لا يعرفها أنها رموز مقلوبة.

اختبر شهاب مزجَ بعض الموّاد؛ فوجد أن المنظر النهائي للمركب يأخذ شكل سائل أزرق اللون؛ فكتب شيئًا ما على الورقة بتلك

الحروف المقلوبة الغريبة، وعدّل البعضَ في صيغته الكيميائية التي كتبها في الورقة، ثم طوى الورقة ووضعها في جيب معطفه الموضوع على ظهر كرسيّه، خلع البالطو والقفازات وكل شيء خاص بالمعمل، ثم أخذ حقيبته وارتدَى معطفه وذهب.

***

في اليوم التالي

استيقظ برتابته المعتادة، ثم صلى وتناول فطوره المعتاد، ثم توجه إلى الجامعة.

- وبعدما نطحن تلك المادة يجب أن نذيبها في الماء؛ حتى تصبح محلولًا، ونضعها في دورق موضوع على فوهته ورقة ترشيح، ثم نُبعدُ الورقة ونستخلص السائل بالماصة، ونقطر 3 ملم على المركب أ ثم...

استرسل الأستاذ في الشرح؛ فأوقفته طالبة:

- أبطِئ قليلًا من فضلك!

رفع عينه بصرامة، ثم تحوّلَت تعابير وجهه مبتسمًا:

- رقية... أليس كذلك؟!

- نعم... أجابت ضاحكة.. أريدكَ أن توضح لنا صيغة المركب أ.

- لِمَ؟ هل تجِدين مادة تنفجر هنا.

ابتسم بمكر.

- لا... لقد شردتُ قليلًا فقط.

- حسنًا، سنعيده.

بعد ساعة ونصف انتهت المحاضرة؛ فتوجه الأستاذ شهاب لمكتبه، ومنه إلى مجمع البحوث العلمية صاعدًا لمكتب أ.د: مصطفى صدقي.

نق نق نق

- د. مصطفى.

- أوه! شهاب، كيف حالك؟

- لقد أردتك في شيءٍ ما.

في حديقة المجمع..

- لقد سمعتُ شيئًا عن تجربة جديدة في بحث جديد لعالِم بجامعة إيطالية.

- نعم، لقد كنت هناك في ذلك المؤتمر.

- حسنًا.. ما الذي يقصدونه بالموت المؤقت بفعل العناصر الكيميائية؟

- حسنًا.. إنَها حالة يتم تجميد جسدها بإغراقه بالنيتروجين السائل، ثم يتم سحب الدم من الجسد بأكمله، ويتم إعادته بالجسد في حين انقضاء الفترة المعنية.

- كل هذا يتم بالعديد من المساعدة.. أليس كذلك؟

- بالطبع، العديد من التجهيزات وبرفقة فريق طبي متطور بالتأكيد.

- إذن.. ماذا تعتقد بشأن الموت الذاتي؟

انكمش وجه العالم العجوز مستفهمًا.

- موت ذاتي؟ هذه أول مرة أسمع عنه.

- الموت الذاتي -تلفّت يمينه ويساره- حينما يقوم القلب بشيء من إبطاء ضخّ الدم؛ حتى يصبح شبه منعدم، وتعجز الأنسجة والخلايا بسبب ضخّها لكل الأشياء المفيدة بها وانعدام التغذية، وكل هذا لفترة محددة.

- لا، لا أعتقد أن هذا ممكن مع البشر.

- لكن، بالفعل..

قاطعَهُ بصرامة:

- شهاب! يجب ان أقول لكَ شيئًا ما.

ثم أكمل بأسلوب أقل حدة بابتسامة طفيفة:

- أنت تذكّرني بنفسي عندما كنتُ صغيرًا، بالفعل كنتُ شغوفًا بالعلم والتجارب مثلك، لكن أجدكَ مهتمًا بالموت عن غيره، هل تمرّ بوقت عصيب بالصدفة؟

تنهّد شهاب الدين صامتًا، فأكمل:

- الموت يا عزيزي أحيانًا لا يكون سوى عضلات ممزقة أو جسد ساكن، إنَه ليس مجرد شبحًا، والعلم لم يُثبِت ما بعده؛ لذا لا تشغل به بالك كثيرًا.

- لكن هذه أشياء واقعية بالفعل.

- لكنها لا تحدث بطريقة طبيعية في غالب الأحيان؛ لذا يجب أن نفرّق بين العلم الأخلاقي واللا أخلاقي.

تجمّد شهاب لوهلة.

- حسنًا سيدي.

صافحه، ثمَ أدار ظهره متوجهًا لسيارته وصعدها، ثم نظر لمعلمه الجليل من بعيد متأملًا إياه، ثمّ ذهب.

دخل إلى منزله وقذف بأشيائه وحقيبته على الأريكة، فوجد رسالة على بريده الإلكتروني؛ فجَرّ كرسيه وجلس، ونقر عليها لتظهر أمامه:

من: Mostafa Sedky@gmail.com،

إلى: Shehab-eldin Mahmoud@gmail.com

"تحياتي تلميذي العزيز د. شهاب الدين محمود..

الموت الذاتي، أو ما يعرف بالقتل الداخلي، وهو عندما يتعرّض الجسد لظروف خارجية صعبة يستقبلها الجسد من الداخل على أنَها شيء من الأشياء التي تتحايل على غريزة البقاء لديه؛ فيبدأ بالعمل على أنَه شبه ميّت من بُطءِ عمل القلب والأنسجة مع جمود في الجسد بأكمله، وهي تعدّ من الطرق التي لا تحتاج الكثير من التجهيزات عليها؛ إذ أنّها تحدث طبيعيًا بفعل البيئة المحيطة، مثل الحيوانات التي تعيش في ظروف طبيعية قاسية وما إلى ذلك، ولكنها لم يتم التأكّد منها على البشر علميًا؛ لذا لا أستطيع أن أوفيك بأكثر من ذلك، وفي النهاية أتمنّى لك التوفيق.

أ.د: مصطفى صدقي"

قام شهاب بإنهاء الرسالة، ثم زفر متململًا وهو يريح ظهره ع مقعد مُكَرْمشًا وجهه فجأة وهو يضغط ع قلبه بيده، بدأ ينهج، ثم غطّ فجأة في نوم مفاجئ!

***

بعد ظهيرة اليوم التالي..

دلف لمتجر الكتب نفسه للمرة الأخرى، وتوجّه لقسم التاريخ، وبدأ في القراءة قائلًا: هذه المرة سأختبر كل ما أريد قبل أن أذهب.

سمع صوتًا سائلًا من بعيد قاطعًا اندماجه:

- يمكنك الجلوس والقراءة إذا أردت، توجد مقاعد هنا.

مشيرة بسبابتها للمقعد الذي يقابلها.

رفع عينيه ببطء عن الكتاب؛ فوجد أنها تلك الفتاة التي قابلَها في المعمل، وها هو يقابلها مرة أخرى هنا.

توجّه للمقعد الذي أشارت إليه وهو يبتلع ريقه؛ فهو استنتج أنها تريد التحدث إليه، جلس ثم وضع عينيه على كتابها الذي تحمله بين راحتي يدها.

- أوه... المركبات الكيميائية العضوية.

- نعم!

- هل هو مجالك؟ إنَه نفس تخصصي.

أومأت هي برأسها بالإيجاب، وساد الصمت بينهما.

- إذًا.. لِمَ تقرأ في التاريخ؟!

قالت وهي تدنو منه:

- أنا.. أنا مهتم به.

- رغم أن تخصصك هو الكيمياء العضوية؟!

- بالضبط.

- أوه.. إنه شيء غريب قليلًا.

- ما هو الغريب؟

- أقصد أنّكَ تدرّب العديد من الخريجين في معملك الخاص، ثم تأتي هنا لتقضِيَ وقتك في شيء مختلف تمامًا عن عملك.

- لا، إنّه شيء عادي!

- ولكنه ليس مغْزَاه الاهتمام فقط!

تلاقت عيناهما لوهلة، ثم قال وهو يغلق كتابه وينهض:

- أحيانًا لا يكون كل شيء يسير كما نراه من المفترض أن يسير، لكن لا يعني هذا أنّه لا يحدث!

أدار ظهره ليغادر تاركًا كتابه على المنضدة، فقالت له موقِفَة إياه:

- يجب أن تعيد كتابك الذي أخذته لمكانه.

أدار ظهره ليلتقطه من على المنضدة، وشكرها مبتسمًا.

توجه إلى الباب مغادرًا، فسألته الأمينة عن إذا كان يريد أية مساعدة في البحث قبل أن يذهب، ولكنه أجاب بالنفي وذهب، بينما هي ما زالت معلّقة نظرها عليه حتى اختفى من آفاقها.

بعد بضع ساعات تدقّ الساعة الثامنة مساءً؛ لتحزم أغراضها وتأخذ حقيبتها وتغادر المتجر، استقلّت المواصلات العامة لتنزل منها بعد خمسة محطات، وتتمشى قليلًا للأمام لتجد منزلها هناك وتدخل شقتها وتغلق الباب خلفها جيدًا، وترمي بحقيبتها على الأريكة، وتدخل غرفتها لتلقي بجسدها على سريرها، ثم تلتفّ بجسدها يمينًا وهي تضم ركبتيها لصدرها بذراعيها.

- هل هذا تضارب هرمونات أم أنّني أشعر باكتئاب حقًا.

جالت أفكار مظلمة في ذهنها وهي تُجِيل نظرها في المكان الذي لطالما اعتادت عليه، لكنها تشعر الآن بأنّه غريب وبارد بالنسبة لها، ولم يعد به أيّ دفء ولا أمان.

تسمع صوت الرعد في الخارج يشقّ صمتَ ليالي الشتاء الباردة؛ لتتشنّج وهي خائفة، وتضع يديها على أذنيها، ثم تجذبُ اللحاف وتفرده على كامل جسدها، وتغطُّ في نوم عميق.

دخل هو منزله وهو يحمل العديد من أكياس التبضّع بين يديه التي اشتراها بعد أن ذهب لمعمله الخاص لتكملة بحثه، الذي من المفترض أن يتم تسليمه بعد بضعة أشهر، وضعهم على المنضدة ثم دخل مباشرة للمطبخ بحثًا عن أية لقيمات متبقية يستطيع أن يضعها بفمه الآن؛ فوجَد خبزًا يابسًا أمامه على الخزانة تُرِك من يومين؛ فأعّد لنفسِه كوب شاي وتناولهما بنهَمٍ وهو يفكر ببؤس فيما يأكله، ثم وضع الأغراض التي اشتراها في مكانها ودخل لغرفته، ولفّ نفسه بلحافه بعد أن بدّل ملابسه ونام.

في اليوم التالي في المعمل سألته متدربة:

- ما هو تركيز المادة الموضوعة في آخر التفاعل؟

سأل هو الحاضرين لكي يعلم من يعلَمُ الصيغة بالطريقة الصحيحة.

فأجابت هي:

- 5 مل.

- بالفعل إنها ستصبح 5 لتعطي التركيز المثالي ، ما هو اسمك؟

- أسماء.

- إن العمل الجاد يؤتي ثماره حقًا، استمري على هذا!

ابتسمت ابتسامة خافتة، وانصرف الجميع.

عند الانتهاء من العمل وهم مغادرين، استوقفته وهي تسأله:

- ما هو معنى الروابط الاشتراكية؟

رد هو ببديهية:

- الروابط التساهمية؟

زفرت قائلة:

- مكتوب هنا أنه يجب أن تكون بين مواد المركب أو روابط اشتراكية، لم أفهم ماذا يقصد.

- اشطبي عليها ثم اكتبي فوقها: يجب أن يكون عنصرَي المركب نشاطهما متشابه؛ حتى يعطي المركب المطلوب.

- أوه...

هزت رأسها مترددة.

- هناك أسرار لا تُعرَف من الكتب؛ لأنه هناك دائمًا خوف من نقل الحقيقة بصورتها الحقيقية، عادة ما يخشى العلماء هذا، ثم يقولون: الحقيقة دائمًا نسبية؛ فيتكتمون على أسرارهم حتى لا يقاطعهم أحد عن عملهم، إنه شيء معقد!

- حسنا... لقد ساعدتَنِي كثيرًا.

- أعلم!

نظرَت له باستغراب ضاحكة:

- لكن... هذا ليس كافيًا أيضًا، أود أن أعلم الكثير.

- في ماذا؟! هل أستطيعُ أن أساعدك؟

- أعتقد... لكنني... أريد أن أعلم حقائقَ تاريخية أكثر تفصيلًا من القرن الحادي والعشرين إلى القرن السادس عشر الميلادي، أريد أن أعلم عن الإمبراطورية الشرقية أكثر فأكثر.

- حسنا، متى تريدين ذلك.

اليوم في السابعة مساءً.

- د. كمال.

- د. شهاب، أهلًا وسهلًا.

سلّمَ عليه وهو يربُتُ على كفّه.

- يمكنك أن تجلس هنا.

مشيرًا إلى الصف الأول.

دخلَت أسماء بمظهر رسمي أنيق؛ لتأخذ أنظار أ. شهاب ومَن بجانبه مثل الوردة الرئيسية في باقة الورد، صعدَت حتّى الصف الثالث؛ حيث جلسَت، فحرّك هو يده ليلفت نظرها محركًا رأسه ليلقي عليها التحية؛ لتلتفت له وتقول هامسة:

- مرحبا.

- اممم... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يسعدني اليوم أن ألتقي بصفوة العلماء الذين أكرمونا اليوم بحضورهم أ. شهاب الدين محمود، وأ. إسماعيل فكري؛ ليستمعوا إلى فكرتي التي سألقيها في الندوة اليوم.

ندوتنا اليوم بعنوان: الأدوية والإتجار بها، وتأثيره على مستحقيها.

بالطبع كلنا نعلم كيف أن صنع الدواء شيء مكلِّفٌ للغاية على الدولة، وبعد ذلك كيف يصل للمواطنين بسعر مكلّف للغاية، وبما أن اقتصادنا نحن في غِنَى عن أن نذكر حالته اليوم؛ فإن...

بعد بضع ساعات يخرج الحشود من قاعة الندوة، وتخرج معهم أسماء وهي تنظر لساعتها مسرعة بخطواتها للمنزل:

- أوه! إنها العاشرة والنصف بالفعل.

- لا تقلقي، يمكنني أن أقلّكِ للمنزل.

- شكرًا، سأذهب بالمواصلات العامة

قالت وهي تفتح حقيبتها وتناوله اسطوانة.

- ما هذه؟!

- الكتب التي أردتَها.

- شكرًا جزيلًا.

- عن إذنك!

قالت وهي تغادر، وهو مشي خلفها لمحطة المواصلات، وما أن وصلا حتى زفرت هي:

- أووه... إنها الحادية عشرة بالفعل، من المفترض أن أكون نائمة الآن.

ابتسم هو:

- لا تقلقي.. ستكون هناك وسيلة.

صمتا لوهلة، ليقول وهو ينظر للاسطوانة بيده:

- لكن... من أين أتيتِ بتلك الكتب؟

- في الواقع... لقد عرفتُها من أبي؛ فهو كان مغرمًا بالتاريخ ويحبّ التعمق فيه.

- ماذا يعمل والدك؟

- إنه باحث في التاريخ والآثار.

- ولماذا تقولين كان... هل هو متقاعد؟

- لا... إنه مُتوفًّى.

- أوه... أنا آسف.

- لا مشكلة.

- إذن أنتِ مهتمة بالتاريخ بسبب والدك.

- نعم... هو من لفت نظري لهذا العلم.

- والكيمياء؟!

- إنها دراستي، وهي رائعة أيضًا، أنا أحبها كثيرًا.

- لكن... أيهم تفضلين العمل به أكثر؟

- أنا أتدرب في معملكم؛ لأنني أعتقد أن هناك نتائجًا ملموسة هناك.

- أوه... لقد فهمت.

- ولِمَ تعملين بالمكتبة بما أنكِ لديك العديد من كتب التاريخ بالفعل بمنزل والدك؟

- أنا قريبة من الكتب هناك، وأعمل أيضًا وأطور مهاراتي في البحث وهكذا.

- هل العمل هناك ممتع أكثر أم معنا؟

- الاثنان ممتعان، أوه... الأتوبيس.

- شكرًا جزيلًا.

قالت وهي تصعد الأتوبيس.

أومأ لها برأسه مبتسمًا، وظل ينظر إليها حتى غادرَت ناظريه.

وضع الاسطوانة بجيبه، وعاد حيث تكمن سيارته، وأدار محركها وذهب لمنزله.

رفع غطاء سريره عليه وهو شارد النظر:

- إنها شخصية مليئة بالأسرار بالفعل، إنني لم أصدق عندما ظننتُ أن الشكلَ مختلف عن الشخصية، لكن يبدو أنهما متشابهان بالفعل.

نظر للاسطوانة الموضوعة على الكومودو بجانب السرير شاردًا قليلًا، ثم حذّر نفسه قائلًا: "فلتخلد للنوم.. هذا أفضل لك."

خلع نظارته وذهب في نوم عميق.

***

اليوم التالي في المعمل..

وقف أمام متدربيه قائلًا:

- اليوم هو الثلاثاء، وهو يوم التخريب العالمي بالنسبة لي ولمعملنا.

صمت لوهلة أثناء ضحك الجميع؛ ليردف:

- أنا وأ. كمال سنشرف اليوم على التجارب التي تدربنا عليها من قبل، ولكن اليوم مختلف؛ لأنكم أنتم من ستصنعونها ونحن سنشاهدكم وننتقد ما تفعلونه فقط، تمام؟

المتدربين:

- تمام!

- حسنا، لنبدأ.

بدأ الجميع بقياس تركيز المواد، ووضعوها في الماصة لتحضير المركب أ، ومن كان أنجزه بدأ في تحضير المحلول ب والمحلول ج، والأستاذان يمرّان بجانب الطاولات ليشرفا عليهم.

بدأت أسماء بطَحن الأملاح الخشنة، ومزجت كل واحد منهم مع الماء حتى يعطي محلولًا، عندما جاءت لتضع أحدهم على ورقة الترشيح كان خشنًا قليلًا؛ فلم يعطِ التركيز المطلوب، زفرَت هي بعصبية:

- رائع! هذا سيعاد مرة أخرى.

نظر شهاب مترقبًا إليها قائلًا في سره: "أتمنى أن تفهم الوصفة جيدًا".

وقف متدربٌ أمام السخان، وما أن وضع قنينة المركب عليها إذ انفجرت.

- رائع... الحادث الأول.

أردف أ. كمال.

وضعت أسماء عينها على عملها، ثم استمرّت بحرص وعصبية.

بعد مرور فترة من الوقت..

- باقي من الوقت ربع ساعة.

أردف أ. كمال.

بدأت أسماء تخلطُ المحاليل مع بعضها البعض بحرص، وهي تقول لنفسها: "لا توجد فرصة لإعادة شيء الآن، فلنفعلها بصورة صحيحة الآن.

تمّم الجميع عمله وبدأ باختبار المحاليل التي قاموا بصنعها، حصر د. شهاب رقبة قنينة المركَّب بين سبابته وإبهامه؛ فقد كان اختبار المركب بمستوى حامضيته أو قاعديته، وبعد الاختبار رفع أ. كمال يَدَ متدرّب رجل واحد فقط كان مركبه مضبوطًا هو وبنتين قائلًا:

- إذا رشّحنا فردًا ما للمركز الأول فإن ربعنا سيكون مناهض جدًا لحسين، الرجل الوحيد الذي أنجزه بطريقة صحيحة، لكنني أرشّح اليوم أحد البنتين... ما هو اسمك؟

- أسماء – تسنيم.

- تسنيم هي زميلة أثبتَت جدارتها طوال المدة التي تعاونَت فيها معنا، لكن أسماء لم تمكُث لدينا فترة طويلة، وقد أثارت إعجابنا بدقتها النموذجية؛ لذا أ. أسماء وتسنيم وحسين... نحن فخورَين أنكم معنا... تصفيق!

ما إن سمعَت أسماء إطراء أ. كمال وتصفيقهم؛ إذ أفرجَت شفتيها عن ابتسامة بلهاء واسعة، اتصلت عيناها بعيني أ. شهاب مهنئًا إياها على حصولها المركز الأول.

في وقت الانصراف خرج الجميع، واستوقفها أ. شهاب:

- مبارك.

- شكرًا جزيلًا.

أعطَى لها الاسطوانة مبتسمًا:

- إذا احتجتَ شيئًا، أخبرني.

- سأخبركِ بالتأكيد.

- حسنًا.

قالت وهي تنصرف

- هل لديك عمل اليوم؟

- لا، إنه أجازتي.

حاول هو كَبْتَ حزنه.

- إذا أردتِ شيئًا مني ستجدني هناك غدًا بإذن الله، سأغادر الآن.

- صحبتكِ السلامة.

حدّث نفسه بخيبة أمل قائلًا "هذا ليس ما أردته!"

عاد إلى طاولته الخاصة بعد أن تأكد أن الباب مغلق، وأكمل عمله معدّلًا الصيغة الكيميائية بالعبرية القديمة في ورقته، ثم أعاد كل شيء لموضعه ثم غادر بعربته متوجّهًا للسوق، اشترى خضرواته ودجاجَه وما ينقصه، ثم عاد للمنزل وهو محمّلًا بها، صلّى وبدّل ثيابه، وجهز المكان ليبدأ بإعداد طعامٍ يُمكن أن يؤكل، فقال محدثًا نفسه:

- يبدو أن التحول هذا لا يحوّلك بكل مزاياك، إنها لخيبة أمل كبيرة!

بعد أن انتهى جلس على طاولة الطعام مشغّلًا التلفاز على قناة الأخبار، ثم وضع ملعقة مملوءة بداخل فمه: "على الأقل هذه الطبخة ليسَت مثل أول مرة قمتَ بها بالطهي، يبدو أن طهيي أصبح أفضل! رائع!"

أفرغ صحنَه بسرعة، ثم قام بملئِه مرة أخرى ليفرغه بنهم شديد، انتهى بمعدة مملوءة للغاية.

أغلق التلفاز وتوجّه مباشرة لغرفة نومه وهو منغمس بالتفكير..

"هل هي حقًا، أم أنه تشابه أشكال؟! أم أنه تشابه شخصيات؟! أنا لا أعلم الحقيقة، أنا فقط أعلم ما أراه، لكن... ما أراه أعتقد أنه صائب حقًا، لكن هل ستصدقني إذا صارحتُها بشيء جنوني هكذا بدون أن تحبني، لكن ماذا إن كانت تحبني حقًا حتى لو ليس مثلها؟! لا أعلم لكنني أود هذا، فلتنم الآن!"

هل هو الشعور بالملل... أم أنَه احتياج متبادل؟!

الساعة التاسعة صباحًا..

نهضَت هي من الفراش بتململ ممددَة ذراعيها وتتوجه للحمام، فتحت الصنبور ووضعت كفيها تحت المياه السائلة منه لتتأفف من برودة الماء، ثم تنظر لوجهها في المرآة وهو عابس، كم يبدو قبيحًا؛ فتردّدَت بالنظر إلى المرآة حتى تجعل وجهها أقل قبحًا في هذا التعبير، ثم غمرَت وجهها بالماء وأغلقت الصنبور خلفها متوجهة للمطبخ؛ لتغمس رأسها في الثلاجة وتخرج ببرطمان مربّى، فَرَدَت المربى على الخبز ثم عادت لسريرها مرة أخرى وهي تأكله، أمسكَت الهاتف الذكي الخاص بها وبدأت تبحث في تطبيق الفيس بوك عن حساب مستخدم يُدعَى د. شهاب الدين محمود، نقرت على رمز ابحث لتظهر لها نتائج عدة، ولكنها لم تجد أية نتيجة تمُتّ بصلة له؛ فواصلت البحث لعدة مرات فلم تجد أية نتيجة شبيهة عند البحث بـ د. شهاب محمود، أو د. شهاب الدين أو حتى بـ د. ش.أ.م.

زفرت وهي تلقي بالهاتف جانبًا، ثم أخذت تفكر بعمق في ابتسامته ورائحته العلقة، أو كيف يجعلها تشعر عندما تراه أو تسمع اسمه في

مكان ما، ابتسمت بإشراق ثم أغلقت عينيها حتى تنغمس في هذا الشعور اللطيف الذي يتملّكها من رأسها حتى أخمص قدميها.

نهضَت فجأة لتلتقط هاتفها مرة أخرى من على الغطاء، ثم أخذت تبحث عن د. كمال محبوب لتجد صورة زميله د. كمال في إحدى نتائج البحث فتختاره، وتتأكّد من صفحته الشخصية أنه يعمل لدى جهة التدريب الخاصة بها؛ فتبحث بين 2535 من أصدقائه عن حساب د. شهاب الدين محمود، وتبحث وتبحث.. وفجأة ظهرت أمامها صورة د. شهاب؛ فتفتح صفحته الشخصية وهي تشعر بالحماسة كأنّها اكتشفت كنزًا سيجعلها سعيدة لأبدِ الدهر، ثم تتصفح صوره وهي محمرّة الوجنتين.. في هذه الصورة يبدو جذابًا، وفي هذه تبدو عيناه مشرقة، وفي الأخرى تبدو ذراعه قوية من خلف البالطو الأبيض، استمرّت تتصفح صورَه مرات عديدة حتى نظرت للساعة؛ فوجدت أنها يجب أن تتوجه لمقصدها الآن.

نهضَت مسرعة، والتقطَت ملابسها وذهبت.

مرّ هو على متجر الكتب بعدَمَا أنهى جدول عمله في الجامعة "هل تعتقد أنها ستكون هنا في يوم أجازتها؟! أم إنها لن تكون هنا... لا لا لن أدلف للداخل، أم أن اليوم ليس أجازتها حقًا، سأدخل وأعلم بنفسي"

- مرحبًا.

قال وهو يدخل متجوّلًا بعينيه في كل أركان المتجر.

- أهلًا وسهلًا.. تفضل.

توجّه لقسم التاريخ وبحث في العديد من الكتب لمَا يقارب النصف ساعة وهو ينظر للباب في كل مرة يدخل فيها أحدٌ للمتجر؛ فيشعر بخيبة أمل.

- اعذريني.. أريد الجزء الآخر من الموسوعة التي أخذتها آخر مرة.

نادَت على مساعدة لها:

- ليلى، من فضلك! لازمِي هذا السيد للطابق العلويّ.

- هل هي مساعدة جديدة؟

تساءَل بفضول.

- نعم سيدي.

- كانت لديكم مساعدة أخرى، أسماء تقريبًا، أهي ليست هنا؟

- إن أجازتها اليوم.

- أوه حسنًا.

قال بخيبة أمل وهو يرافق المساعدة للطابق العلويّ.

أنت يا مَن تقبع هناك... هل تشعر بما أشعر به؟!

الساعة الخامسة والنصف صباحًا..

استيقظَت هي لتطمس رنين المنبه بعين نصف مفتوحة، وتنهض متوجهة للحمام، لتخرج بوجه جديد مشرق كأنها شخص آخر، لتتناول فطورها وتلتقط معطفها وتنزل.

"أوه.. إن الجو باردٌ حقًا" تُحدّث نفسها وهي تتأفّف.

وقفَت في المحطة تنتظر الوسيلة التي ستنقلها لمتجر الكتب الذي تعمل به.

"أتمنى لو أجده اليوم في المتجر.. أنا حقًا أودّ ذلك" قالت في فكرها وهي تنظر للأرض شاردة الذهن.

سمعَت صوت جرس الأتوبيس؛ فرفعت عيناها لتجده يمرّ من أمامها بسيارته؛ فترتجف وتشعر بنبض قلبها يزداد سرعة، ثم تستقل الأتوبيس وهي مبتهجة وسعيدة، توالَت الطرقات والسيارات بسرعة وهي واقفه يملأُها شعور غريب يجعل الجو صافيًا وبه شيء إضافيّ جميل، شعرَت بالانتعاش طوال المدة التي احتاجتها لتصل لوجهتها، تتذكّر وجهه ورائحته اللّذين يضفيان شيئًا جميلًا لحياتها العادية التي لطالما حلمَت بها، أن تستقل وتعيش بمفردها وتعمل بالمكان الذي تحبّ وتفعل ما تريد، هذه هي حياتها التي كانت دائمًا تفتقر لشيء ما، ولكن بعد أن قابلته شعرَت أن حياتها في أمان، وأنه لا يوجد شيء ناقص، تشعر أنها الإجابة على كل شيء، تشعر أنها يمكن أن تكون مطلوبة ومرغوب بها أخيرًا، وبعد وقت طويل، إنه كل شيء تريده هي!

نزلت للمحطة التي يوجد بها متجر الكتب الذي تعمل به، ومشت حوالي خمسة أمتار حتى تصل إليه، أخرجَت مفاتيح المتجر وأدخلت أحدهما في الباب، ثم دفعت الباب الحديدي الثقيل بيدها ودخلت.

بدأت تنظف أرفُف المكتبة بعد أن رتبتهم جيدًا ونظّفت المتجر بطابقيه، ثم فتحت دفتر الاستعارات حتى تراجع ما ينقص المتجر، ولاحظت اسم د. شهاب الدين محمود، ثم انفجر وجهها بابتسامة مشرقة يتبعها احمرارٌ في وجهها بأكمله، شردت قليلًا ثم صعدت لتكمل عملها للطابق العلوي.

دخل هو للمختبر باكرًا وبدأ العمل في تركيبته وكتابة الصيغة بتلك الكتابة المقلوبة، ثم بدأ في التجهيز لاستقبال طلابه، ثم لم يجدها أمامه مع بقية الطلاب، وسأل د. كمال؛ ليخبره أنها تقريبًا لن تحضر، وأنها اعتذرت مسبقًا بسبب مرضها؛ فيبدأ في العمل وهو أقل حماسَة، وفي منتصف الشرح قاطعَهُم صوت الباب ليجدها أمامه وهي تعتذر

بشدة عن التأخير؛ فيخبرها بصرامة أنه لا مشكلة، ويكمل العمل مع المتدربين.

تنظر إليه وهو يعمل، وتتأمل وجهه.. ويده.. وجلده.. وكل شيء وهي غارقة في شعور غريب مخدّر.

جاء وقت الانصراف؛ فذهب الجميع، وغادرت وهي تنظر إليه، بينما ينظر هو بغضب للأرض، فتنظر إليه ثانية وكأنها تقول بعينيها وداعًا.

دخلت لمنزلها في الساعة الثامنة وسبع دقائق؛ لتتأفّف من البرد وهي ترمي بمعطفها على الأرض، وتدخل إلى الحمام وتفتح الماء على حوض الاستحمام وهي تنظر للمرآة وترى الوجه الأحمق الذي كانت تحدّق به فيه، ثم تضع جسدها في حوض الاستحمام الذي ملأته بالماء الدافئ، وتغوص في شعور متردّد يجعل أناملها تطَقْطِق.

بعد فترة من الوقت تخرج من الحوض وترتدي معطف الاستحمام، وتنعطف للمطبخ وتلتقط من الثلاجة علبة اللبن؛ فتغليه وتضع عليه مربع شوكولا وتفرغه في كوبها، ثم تذهب لسريرها وهي ترتشف منه ببطء، وأمسكَت هاتفها لتتصفحه بفتورٍ، ثم تجد رسالة إلى الهاتف من رقم مجهول "هل أنتِ بخير؟"، فترد عليه برسالة "من أنت؟!"، لتجد ردًا سريعًا يصل إليها "أنا د. شهاب.. كيف حال الجوّ لديكِ. هل لديكم أمطار؟".

- أوه.. د. شهاب، أنا بخير.

- هل سلِمْتِ من الأمطار؟

- أنا بالمنزل الآن؛ لذلك لا تقلق.

- أوه.. لقد وصَلْتِ بسرعة، إذًا أنتِ تسكنين بالقرب من هنا!

- أسكن بعد الميدان الذي يوجد بمنتصف المدينة.. ليس بعيدًا جدًا.

- أوه.. بالطبع.

- هل تقود الآن؟

- لا.. أنا في منزلي أيضًا، لقد وصلت منذ قليل.

حلّ الصمت على محادثتهما قليلًا، ثم قال:

- كيف حالكِ مع التدريب؟

- إنه رائع.. أنا أحبه.

- أنا أجدكِ جيّدة به.

- أوه.. حقًا؟ ^-^

- أعتقد أنكِ ذكية وتتعلّمين بسرعة.

- شكرًا.

- أسماء، أنت لم تقولي من قبل ما هو سرّ حبّكِ للكيمياء؟

- الكيمياء شيء رائع حقًا، أنا أحب التجارب؛ لذا أحببت هذا العمل.

- لكن ما الشيء الذي جعلكِ تحبين التاريخ؟

- مكتبة والدي.

- هل هذا سبب كاف؟

- أعتقد.

- إذًا لمَ توسّعتِ عنها؟ كان بوسعك معرفة ما بداخلها فقط.

- لا أعلم، ولكنني أحب الحكايات والروايات.

- أوه.. حقًا؟

أرسل الرسالة وعيناه تلمع بالانتصار.

- نعم.. ألا تحبها؟!

- لا بالطبع أحبها.

عمّ الصمت مرة أخرى على دردشتهما.

- هل أنتِ متفرّغة غدًا؟

- لديّ عمل ينتهي بالعصر فقط.. هل هناك شيء ما؟!

- لا.. أنا فقط.. أردت أن أعلمَ إذا كنتِ ترغبين بمرافقتي للسينما غدًا.

- سينما؟!

- ماذا؟ ألا تحبينها؟!

- لا بالطبع أحبها، لكن..

- إنهم يعرضون فيلمًا تاريخيًا.. هل تودّين المجيء؟

- لكن..

- لا تقلقي، سيكون معنا زملاؤنا في المختبر.

- لا مشكلة.. في أي ساعة؟

- الخامسة عصرًا.

- حسنًا.

- سألقاكِ في سينما وسط المدينة.

- حسنًا.. سأذهب الآن.

- سلام.

انتهَت المحادثة لتجد أن معاد نومها قد فات، وأن المحادثة قد استمرت لساعتين ونصف تقريبًا؛ فتُقبّل هاتفها وتغمسُ رأسها في وسادتها؛ لتغُطّ في نوم عميق.

الأحزان... تلك التي تؤلم القلب.

الساعة الخامسة والنصف صباحًا..

استيقظَت أسماء بابتهاج وإشراق بسبب أنها ستقابله اليوم، فتتأمّل وجهها في المرآة كثيرًا، ثم تقوم بعرض أزياء أمام خزانة ملابسها حتى تجد أجمل مظهر يمكنها أن تقابله به، فترتدي أفضل ما تملك، ثم تنزل لعملها وتنهي نوبتها بنشاط وهي تنظر لساعة يدها؛ فتجدها الرابعة وخمسة دقائق؛ فتذهب تجاه سينما وسط المدينة.

أنهى شهاب عمله في الجامعة، ثم عاد لمنزله وارتدى أفضل ما يمتلك، وسرّح شعره ثم توجّه للسينما في ميعاده، ويقف لينتظرها بجانب المتدربين وزملاء المعمل وهو يبحث بعينيه عنها في كل مكان؛ فيجدها وهي تدخل لقاعة الانتظار كأنّ حولها هالة نور تشع من حولها؛ فيرحب بها ويدخلَا لقاعة العرض سويًّا.

جلسَا بكرسيّين مجاورين لبعض، ووجّهَت نظرها هي لشاشة العرض، بينما ثبّتَ هو نظره عليها متأملًا قسمات وجهها.. بشرتها.. ووجنتيها.. وعينَيها اللتين تُذكّره بماضيه جيدًا، وتذكّره بالسيدة التي أحبّها في الماضي من قبل، قطع تفكيره طلابُه وزملائه في المختبر الذين كانوا يرحّبون به، ثم جلسوا بجوارهم؛ فنظر لشاشة العرض وبدأ الفيلم.

بعد انتهاء الفيلم خرجُوا جميعهم من القاعة، وهي تردف:

- لقد أحببتُه حقًا.. إنه صراع بين المغول والعرب، ولكن من وجهة نظر الضحايا.

رد عليها أ. كمال:

- بالطبع.. إنها طريقة جديدة للتفكير بهذا الصراع لم أشاهدها من قبل.

دار بينهم نقاش حول الفيلم، ثم سلّمَ الجميع على بعضهم البعض وذهبوا لمقاصدهم.

- هل أنتِ جائعة؟

سألها هو.

توجّها للمطعم وطلبا طعامهما، وتناولاه وهما يسألان بعضهما عن أحوال بعض كلّها.. ما يحبانه وما يكرهانه، وكلما أجابَت هي إجابة أحَسّ أنّها أقرب لحبيبته السابقة، وأنها هي حقًا! وكلما سألها سؤالًا إلّا وهي تشعر أنه يرغب بها حقًا، وأنها لا تتوهم.

دفع حسابهما، ثم ذهبا والهواء البارد يهبّ في الأرجاء.

- شكرًا على الطعام.

قالت.

- العفو.

رد ببرود.

مشَيَا بضع خطوات للأمام؛ فقال لها:

- أريد ان أقول لكِ شيئًا.

- تفضل.

وهي تشعر أن هناكَ شيئًا أسطوريًا يحدث.

- بفضلِكِ مختبرنا يتقدّم، أنا سعيد لأن متدربة بذكائِك انضمَّت لمختبرنا.

- شكرًا.

ردت ناظرة للأرض بخيبة أمل.

- أريد أن أريكِ شيئًا ما.

قالها وهو يُخرِج علبة قطيفة صغيرة من جيبه، ويفتحها ليكشف عن خاتم منغرس بمنتصفها.

- هل تقبلين بي؟

- ماذا؟!

قالت متفاجئة.

- نعم! أنتِ فتاة رائعة وجميلة، وحدثَتْ لي الكثيرُ من الأشياء الجميلة معكِ، أتمنى لو تقبلين.

- هذا فقط؟!

قالت بنبرة حادة متفاجئة.

- أنا...

- اسمح لي أن أخبركَ يا سيدي العزيز أنا لستُ رائعة، هناك الكثير والكثير يوجد بداخلي.

- ماذا تقصدين؟! أنا لم أفهم.

- أنت تراني مثالية فقط.. هذا كل ما في الأمر، بل لا تراني بالأساس، أنت ترى تلك الفتاة التي اخترعها بصرك، لكن أنا لستُ كذلك، ولن أسمح أن يُكسَرَ قلبي مرة أخرى.

- لا، أنا لم أقصد هذا...

- لا بل هذا ما تقصده، أنت مثل بقية الرجال الذين رأيتهم بحياتي، بل مثل بقية الناس، لن تسمحَ لنفسك بأن ترى بقيّة شخصيّتي ثم تتركني مهجورة القلب، اللعنة! إنك حتى لم تبيّن لي عكس ذلك طوال الفترة التي عرفتُكَ بها، كم أنا غبية! لقد.. لقد ظننتُ أنكَ تحبني.

- أنا أحبكِ بالفعل.

- لا.. أنتَ لا تفعل! بل أنت تحب تلك الشخصية المثالية والجميلة والذكية، أنت لم تحب هذا بي.

- أنتِ لا تعرفين شيئًا.

- بل أعرف كل شيء، كل ما في الأمر هو أني مثل الخيال أو التمثال الذي لا يوجد له مشاعر... هل تعلم ماذا؟! أنا ذاهبه!

قالت والدموع تسيل من عينيها الحمراء.

تركتهُ في وسط الشارع مكسور القلب وهو مازال ممدِدًا يده بعلبة الخاتم.

عادت لمنزلها وألقَت جسدَها على سريرها وهي غارقة في البكاء؛ بسبب خيبة أملها، وأنه لا يوجد أحد يستطيع أن يمنحها ما تريده، أن يحبها لذاتها.. لذاتها فقط.

عاد لمنزله وهو مغلق الفم محطّم، وهو يشعر أن الحب في حياته دائمًا هو ما يؤلمه ولا يكتمل أبدًا، كتب لها رسالة نصيّة على الهاتف وهو يذرف الدموع:

"لو أنكِ تركتِني أكمل ما ذهبتُ ولا تركتُك غاضبة تبكين، كنتُ جعلتُكِ تعلمين كم أحببتكِ، كنتُ جعلتك تعلمين كم أردتُ أن أكون بجانبك طوال الوقت، هناك الكثير من الأشياء التي أودّ أن أفعلها معكِ، برفقتك، لكن أعتقد أن هذا أصبح يشبه المستحيل، رغم أنني جعلتك تتألمين، لكن.. أرجوكِ كوني سعيدة، حتى إذا مع شخص ما غيري." إرسال.

أسند ظهره على الحائط وهو يتألم صارخًا بفعل الدواء، ثم فقد وعيه.

هو وهي.

حزم قنانيه، وارتدى عباءته متوجهًا نحو الباب، وفك عقدة رباط حصانه وركِبَه؛ ليشق طريقًا صحراويًا فارغًا، حصانه جرَى وجرَى في الصحراء حتى أوقفه صراخ فتاة تحتضر في الخلاء، تلفّت يمينًا ويسارًا؛ فلاحظ سيدة صغيرة مستلقية على الأرض يغطِّي وجهها وجسدها دماء ممزوجة بالرمال، مغروس بالأخير سهم مسموم، نزل هو ليحملها بين يديه ووضعها على ظهر حصانه، وتأكد أنه لا يوجد مستغيث آخر، ثم عاد أدراجه لكوخه الصغير في منتصف الصحراء.

- سيدتي.... سيدتي..... هل أنتِ بخير؟!

نظرت هي أمامها برؤية شبه مشوّشة؛ ليتضح لها عيناه القلقة، تلفّتَت حولها...

- أين أنا؟!

- اهدأي سيدتي.... أنتِ بأمان هنا لا تقلقي، تناولي هذا الدواء.

- أبي..

انفجرت باكية:

- أنا آسفة حقًا.

نظر هو للأرض شاعرًا بالشفقة، شعرت هي بالإعياء وأوقفت بكاءَها فجأة؛ فأعطى لها الدواء وذهبت في نوم عميق.

بعد عدة ساعات..

- اعذرني... هل من أحد هنا؟

قالت وهي تستكشِف الكوخ.

حزم عدّته والْتفَتَ ليراها أمامه حاجبًا عدّته وراء ظهره.

- المعذرة... لقد استيقظتُ الآن فقط.

قالت وهي تستسمحُه.

- لا مشكلة... من الجيد أنكِ استيقظتِ.

- هل أنتَ من ضمدتَ جروحي؟ أشكرك.

- إنه واجبي.

احتلّ الصمت المكان لوهلة، ثم قطعه هو بقوله:

- بالتأكيد تحتاجين لتناول شيء ما!

نظرت للأرض بإحراج؛ لتفرج شفتاه عن ابتسامة بسيطة.

وضع طبقَين على المائدة ليغرس بداخل أحدهما ملعقة ويقدمه لها بابتسامة، جلس أمامها متناولًا طعامه ببطء؛ لينظر إلى وجهها فجأة ويقول مترددًا:

- بالنسبة للبارحة... أنا حقًا آسف.

تجمّد جسدها فجأة؛ ليقول هو:

- لكن.. أعتقد أنه..

- أعرف ما تريد قوله... إنهم ما تظنه!

- اعذريني، لكن... أنا لم أكن أعلم أنهم قريبون لهذه الدرجة.

قاطعته هي باكية

- ألم تجد ناجٍ آخر؟

ينظر للأرض بأسف، ويقول:

- سيدتي..

أجابَت هي باكية:

- إن النهاية أقرب مما اعتقدتُ، لقد حاولتُ جاهدة، ولكن لم يفلح الأمر...

قاطعَها:

- لا سيدتي.. لا تلومي نفسكِ؛ إنه شيء مقدّر له أن يحدث.

- إذًا وماذا سنفعل؟!

قال وقد تغيّرَت ملامح وجهه:

- أنا... لا أعلم حقًا، لست متأكدًا من أي شيء.

أنهت هي الحوار وهي تزفر ملتفّة نحو النافذة؛ لترى من خلالها الظلام الذي يغطي كل شيء.

***

جلس الوزير في شرفة قصره، وهو شخص ملامحه حادة عليها مسحة من الحنان، ذو عينين سوداء جاحظة تدل الخطوط حولها على كهولته، كان يرتشف البعض من كوب القهوة؛ ليدخل عليه السلطان الكهل ويحيط بجانبه، دوّى الخدم "السلطان نور الدين محمد الخوردي"

السلطان:

- السلام عليكم.. أتمنى أنك بخير.

الوزير وهو ينهض مبتسمًا:

- أنا بخير أخي العزيز، لقد شرّفَني قدومك اليوم.

السلطان بنبرة حزن:

- لقد أردتُ رؤيتَك حقًا، أنت تعلم أنك... آخر المخلصين لي.

الوزير:

- أنا دائمًا بجانبك لا تقلق، أنت تعلم أنك الصديق الصدّيق.

السلطان:

- لا أعلم، لكن منذ تلك الحادثة هناك دائمًا شيء غريب، أعتقد أنني لن أستطيع مجاراة هذا حقًا.

الوزير:

- لا تقل هذا؛ فأنت قوَّيْت أرجاء الدولة الخوردية، وحكمتها وشكمتها في فترة عصيبة حقًا، وأظن أننا نحمي ظهور بعضنا البعض، أنت أخي وسندي.

سالت دموع السلطان على خده، وأخذ يمسحها بيد مرتعشة.

الوزير:

- إن نصر الله لقريب، إنه لقادر على أن ينصرَنا على تلك الجيوش المغولية الهمجية.

السلطان:

- لا يمكنني، لقد فقدتُ سببَ عيشي، لا أستطيع.

الوزير وهو ممسكٌ كتِفَي السلطان:

- لا تكن هكذا، أنا هنا لأنك هنا.. ألم تقل أني مِن مخلصيك؟

غارت عيون السلطان المدمِعَة في أسوأ ذكرياته؛ فهو كان دائم الانتصار على المغول الذين قتلوا والدته وزوجة أبيه، وحينها عَهِد على أن ينتقم منهم؛ فخرج بجيش كبير وبارزهم عند البحر الأعلى، وكان الانتصار له، حتى جاء أغار جيش أحلاف المغول على حدود دولته وخرّبُوها وهدموا بيوت الكثيرين فيها، ثم أسروا زوجته الحبيبة الجميلة وذبحوها أمامه، هذا كان منذ عشر سنوات تقريبًا، ولكنه منذ حدث هذا وفراق أخيه له وهو دائم المرض، وأصبح جسده ضعيفًا وَهِنًا، أصبح لا يعرف التفرقة بين الحياة والموت، فقَد سببه للحياة، وفقد الدافع الذي يجعله يكمل مشوار حياته، هو دائمًا متألمٌ على فراق أحبته، ولا يستطيع الوثوق بأحد أو يتعلق به كي لا يفارقه مثل ما فعلوا، يشعر أنه لن يستطيع أن يواجه المغول مرة أخرى، الذين يدبرون لقتله هو وبلده التي يحكمها، والتي أصبح يخشى لعنتها.

نظر السلطان للوزير بوجه فاتر قائلًا:

- أخي العزيز، سأرحل الآن.

الوزير:

- هل أُرسِل لكَ طبيبًا؟

السلطان وهو يبتسم بسمة جانبية بفتور:

- هذا لن يجدي! وأنت تعلم.

انصرف بجسد متمايل متهالِك أثَرَ المرض والبؤس، وتوجه لقصره.

توجه الوزير لمكتبه، واستدعى الكاتب ومساعده.

الكاتب وهو منتصب "جلالة الوزير"

الوزير:

- أصدر فرمانًا باسم السلطان ينتشر بكل أرجاء المدينة يعلن حالة الحرب.

الكاتب:

- أمرك سيدي.

الوزير:

- أفشي الخبر بكل الأرجاء، أريدك أن ترسل مساعديك لكل الأسواق.

الكاتب منصرفًا:

- أمركَ سيدي.

تقابل وجه الكاتب بمساعد الوزير وهو منصرفٌ؛ حيث ألقى له نظرة غامضة وذهب.

مساعد الوزير:

- سيدي أنا (مرقفًا الياء).

الوزير:

- سيننوري، أريدكَ أن ترسل كتائبَ أكثر للحدود، وشدّد المراقبة على الساحل الشمالي.

مساعد الوزير بطريقة أنثوية:

- أمرك مجاب سيدي.

الوزير:

- اسمع.. أريدك أن تصدر قرارًا بالتجنيد الإجباري، وتُجنّد كل الرجال عدا المعفيين بسبب حالة صحية.

المساعد:

- سمعًا وطاعة يا سيدي.

الوزير:

- انصرف.

هز سيننوري ضفيرة شعره مغادرًا؛ ليزفر الوزير وينظر للسجلات التي أمامه.

***

استيقظَت مساءً لترفع جسدها عن السرير الجلدي شاعرة بألم غير طبيعي في عضلاتها وعظمها، خرجَت عن غرفة الكوخ الوحيدة؛

لتجد أنه لا يوجد أحد آخر غيرها، نظرَت للقناني الموجودة على الطاولة؛ لتجد أن أحدهم ممتلئ بسائل لونه أحمر، والآخر أسود، والآخر شفاف وربما فارغٌ! اقتربَت من الطاولة لتجد عليها ورقة مكتوب بها كلمات لا تفهم معناها بحروف مقلوبة تعجز عن معرفة أصلها.

سمعَت صهيل جواد في الخارج؛ فجرت إلى سريرها في الداخل، وسمعت صوته وهو يدخل وصوت أزيز القناني، اتسعت عيناها بفضول والأفكار تجول بعقلها: "أيُعقل أنه طبيبٌ كيميائيّ حقًا؟ ولكن لم يكتب صيغ أدويته بهذه الحروف المشقلبة، أم أن هناك شيء ما؟!"

هزّت كتفها بلا مبالاة، وغطت نفسها بغطائها ونامت.

***

في اليوم التالي صباحًا..

استيقَظَ هو على رائحة زكية وصوت تضارب أواني خفيف بجانبه؛ فرفع غطائه ليكتشف ما هذا؟

أدارت وجهها عن الموقد جهته وهي تنظر للأرض:

- عمتَ صباحًا، أتمنى أنك قد نمتَ جيدًا يا سيدي.

سألها بوجه مجعّد:

- ما هذا؟!

هي:

- أنا... أنا أعدّ الفطور.

هز رأسه موافقًا، وذهب ليغسل وجهه، لتضع هي على الطاولة طبقين مملوئين بالطعام الشهي.

جلس هو أمام الطاولة، ليضع ملعقته مملوءة في فمه.

- طعمه جيد.

هي:

- نعم، إنه يشبه طعام البارحة.

هو:

- كتفك مصاب، لا ترهقي نفسك.

هي:

- سيدي، لقد أحسنتَ لي بسماحِكَ ببقائي هنا البارحة، وكتفي بحال جيد؛ لذا.. لذا أريد أن أقدّم لك المساعدة.

هو:

- أنا طبيب وهذا هو عملي.. أنا..

هي:

- لا بأس سيدي الطبيب، أنا ممتنة حقًا لهذا.

هو:

- ما هو اسمكِ سيدتي؟

هي:

- أُدعَى فاطمة، فاطمة بنت جلال الدين أتاتورك يا سيدي.

هو:

- أُدعَى شهاب الدين محمود بن الخو... شهاب الدين محمود.

هي:

- تشرفت يا سيدي.

أنهى هو إفطاره وهو ينهض عن الطاولة قائلًا:

- أستأذنكِ سيدتي، أنا بحاجة للذهاب للمدينة.

هي بتردّد:

- حسنًا.

هو:

- هل لديك حاجةٌ ما؟

هي:

- أنا فقط.. كنت أريد شيئًا من السوق.

هو:

- حسنًا، يمكنني أن أقِلْكِ غدًا إليه، عن إذنك.

هي:

- تفضل.

لفَّت وجهها عنه لتتعجب وتقول في عقلها "ألم يقل أنه ذاهب للمدينة، لم لا الآن؟! هذا الرجل مريب."

بمجرد أن غادر هو شعرت بألم مفاجئ في كتفها الأيسر؛ فضيّقَت عينَيها، ثم أمسكت المقشة وشرعت في تنظيف الكوخ.

***

نظر الوزير بعينيه الغائرتين لسجل الذكور المعفيّين من التجنيد؛ فكان:

عبد الرحمن السعدي بسبب إعاقة ذهنية.

الوليد سعد الكاشي بسبب إعاقة جسدية.

شهاب الدين محمود الخوردي بسبب عدم وجوده، والقصة المزعومة في اختفائِه منذ ما يقارب العقد.

استوقفَه الاسم الأخير كثيرًا متعجّبًا؛ لِمَ ابن السلطَنَة هذا قد اختفى في ظل تلك الظروف الغامضة بعد الحرب؟! وما السبب الذي قد يُودِي بحياته -إذا كان هذا حدث- داخل حدود السلطنة في حالة عدم وجود جواسيس كما تزعُم الشرطة، نادَى الحراس واستدعَى قائد الشرطة والأمن، ثم أمره بإرسال شُرطيَّين للتحقيق في أمر هذا الرجل واستكشافه.

دخل عليهم مساعده؛ ليقاطع حديث القائد.

سيننوري بطريقته الأنثوية:

- سيدي أنا!

الوزير وهو قاطب حاجبيه:

- ما الأمر؟!

سيننوري:

- أعتقد أن حياة السلطان في خطر!

الوزير مصدومًا:

- ماذا؟! ما الذي حدث؟

- السلطان استدعى الشيخ في الصباح الباكر، ونبه على الحراس ألا يدلف أحد إلا هو.

الوزير:

- أوه.. حسنًا! اطلب له الطبيب.

سيننوري:

- أعتقد أن هذا لن يجدي نفعًا.

الوزير بصرامة:

- ما الذي لن يجدي نفعًا يا سيننوري؟!

- أعتقد أنه في أواخر أيامه، وأن أمر الله قادم بإذن الله، وحينها لن يوجد وريث وسيعتلي العرش من يستحقه، سيدي أنا.

- لكن.. ذاك الوريث والمغول.. لا هذا لن يحدث.

سيننوري وهو يملأ دماغ سيده:

- لا تقلق سيدي؛ فيمكننا أن نخرج بجيش كبير وننهي أمر المغول ثم نأسره، وهكذا نكون ضرَبْنا عصفورَين بحجر واحد، ما رأيك سيدي؟

الوزير راضيًا:

- والله.. فكرة جيدة.

- حسنًا.. سيننوري سينصرف الآن.

***

عاد شهاب للكوخ وتناول الطعام الذي أعدّته فاطمة، ثم ربط بحصانه عرَبَة خشبية، وجعل فاطمة تركب بها ليتوجها للسوق كما طلبت منه.

تجولَت فاطمة في السوق وهي تغطي وجهها، وتحمل شنطة من القش على ساعدها مملوءة بأغراض اشترتها، وبدأت تفتش في الأشياء

الضرورية لها والملابس التي تحتاجها بدلًا من تلك التي احترَقَت في بيتها، وهي تنظر للملابس رأت سيّدتَين بجانبها يتوشوشْن ويقولان:

- هل سمعتِ بإغارة المغول على تلك القرية الفقيرة؟ يا ويلهم؛ لقد حرقوهم جميعًا ولم ينْجُ منهم أحد.

فترد عليها السيدة الأخرى بشفقة:

- وا عيناه! ما الذي سيحدث لنا؟

- العالم هو الله، هو الوحيد الذي يعلم ماذا سيحدث لنا... خاصة بعد انعدام الأمن والأمان، لقد أصبحتُ أخاف على أولادي من الطريق الوعرة هذه التي تسكن الوحوش شقوقها، وانتشر السفاحين عند كل بيت بعد مغرب الشمس.

تركَت فاطمة بغضب هذا الجانب من السوق، ثم ركبت العربة وعاد بها شهاب للكوخ الذي يقع في الصحراء على حدود الدولة.

ظلّت فاطمة طوال الطريق صامتة مطبقة شفتيها على بعضها وهي حانقة.

ما إن وصلا حتى سبقته فاطمة إلى داخل الكوخ وهو يعقل جواده في عقاله.

دخل شهاب الدين على فاطمة؛ فوجدها جالسة تضمّ ركبتيها إلى صدرها وهي تبكي؛ فدنَا منها ناظرًا إليها ليسألها:

- ما الأمر يا فاطمة؟

فاطمة وهي تنتحب:

- سيدي.. أنا بائسةٌ حقًا، أنا فقيرة حقًا!

شهاب الدين:

- لِمَ تقولين هذا؟! أنا أرى أنكِ بخير.

نظرَت إليه؛ لتلتقي أعينهما وتقول له:

- لقد سمعتُهن في السوق يتوشْوَشْن بجانبي، ويقُلْن أنه لا يوجد ناجٍ من آخر إغارة للمغول على تلك القرية الفقيرة، يقصدُون قريتي، أنا ما زلتُ على قيد الحياة، لكنني أُعتَبَر ميتة!

قاطعها شهاب الدين:

- حسنًا أتفهمّكِ، ولكن...لا تأبهي بهم!

فاطمة:

- بعد فراقي لأبي وحزني عليه تمنيت ألا أكون على قيد الحياة، لكن الآن الأمر أسوأ بكثير، أنا لا أستطيع أن ألومك يا سيدي، ولكن.. لِمَ لَم تقِلْني للبيمارستان؟

نهض شهاب منزعجًا محاولًا تلطيف كلماته:

- هذا هو ما نفعله هنا، حتى وإن كانت الخدمة قليلة.

- لكن..

- أيضًا، أنتِ يمكنكِ أن تثبتي وجودك، حتى وإن لم يكن هناك دليل.

- أنا مستضعفة، حتى لم أتمكن من محاربتهم، ولن أستطيع الالتحاق بالجيش.

- جيش؟! أهذا هو كل آمالك.

نظر لعينيها باستهزاء، ليضيف:

- أهذا هو كل ما يستطيع المرء أن يفعله؟! سيدتي العزيزة، أحب أن أوضّح لكِ أنه حتى الجيش يمكنه أن يُهزَم.

زُعرَت فاطمة وأجهَشَت بالبكاء؛ ليدير وجهه عنها ويقول:

- أعتقد أنه حان وقت دواؤك.

فاطمة:

- دواء ماذا؟! هذا الشراب يؤلم عظمي، وكتفي بخير الآن.

شهاب الدين بصرامة وهو يلتفت للطاولة التي توجد عليها أدويته:

- يجب أن تتناولي دواءَك بانتظام.

فاطمة محاولة إقناعه، لكنها استسلمت:

- لكن كتفي.. حسنًا يا سيدي.

***

في المساء وصل الشيخ المتصوّف، وهو شخص كبير في السن يُدعى الورِع والتقي، والإيمان يرتكِز على عصاه الخشبية، ويمشي بجسده الهزيل ببطء إلى باحة القصر، ثم لقاعة المؤتمرات؛ ليدخل ويجد السلطان جالسًا على عرشة بجسده الهزيل كأنه طفل صغير بالنسبة لحجم العرش، ويسند خده على يد مضمومة مسنودة على أحد أذرع الكرسي.

الشيخ بصوت سميك متحشرج:

- السلام عليك يا بني.

السلطان بضعف:

- وعليك السلام يا أبتاه.

الشيخ:

- ما الذي حدث لرجلنا وملكنا قاهر الأعداء؟!

السلطان ظل مثبتًا عينه على الأرض باستسلام.

الشيخ:

- الله.. الله..

ظل الشيخ المتصوف يتمتم بأسماء الله الحسنى وآيات قرآنية، وفي هذه الأثناء كان الوزير قد دخل عليهما القاعة ليطمئن على صديقه السلطان.

الشيخ مكملًا تمائمه:

- الله قادر على أن ينصرك وينصرنا على القوم الكافرين، ويعوّضك عما فاتك ويُمدِد ويبارك في نسلك.

السلطان:

- نسلي؟! وا نسلاه!

الشيخ معنفًا إياه:

- الله قادر على هذا.. هذا أمر لا تستطيع أنت أن تتحكم به!

تغيّر وتصلّب وجه الوزير بعد أن كان مملوءًا بالشفقة تجاه صديق عمره.

أكمل الشيخ بعنف:

- يمكنني أن أشعر بأن فرج الله قريب، وأنه يوجد شخص من نسلك سينصرنا ويحمينا جميعًا بفضل الله، وسيعتلي العرش

السلطاني وتزدهر الدولة الخوردية كما السلطان الأول جدّك الأكبر، كما لو أنها في بداية عهدها!

ابتهَجَ السلطان لسماع هذه الكلمات، وشعر أن حمل حماية الدولة الذي لن يقدر عليه قد انزاح، كما هو العكس مع الوزير سيف الدين الأنوري الذي لطالما رأى أنه جدير بهذه المكانة أكثر من أي شخص حصل عليها بالوراثة دون أن يتحمل مسؤوليتها، حتى ولو كان هذا الشخص صديق عمره الذي كان أخيه ووالده منذ الصغر.

انسحَب الوزير من داخل القاعة، وخرج بهدوء لترتسم على وجهه علامات الغيظ والكيد؛ فيجري خلفه مساعده سيننوري:

- سيدي أنا... معاليك.

الوزير:

- ماذا تريد؟!

سيننوري:

- أرى أن سيدي في مزاج سيء.. سيء للغاية، وسيننوري لا يريد أن يرى سيده هكذا.

سيف الدين:

- هذا العجوز الخرف يقول أن نسل الخوردي سيستمر، أكّد على ذلك حقًا، أنا لا أعلم ما الذي يجيدون فعله حتى يصبحوا حكامًا شرعيين؟!

سيننوري:

- هذا الخَرِف المسكين.. لا لا لا تأبه له سيدي أنا.

وهو يهز ضفيرة شعره.

سيف الدين:

- إذًا ما الذي آبَهُ به، إذا عاد ذاك الطفل حقًا لن أستطيع أن أحكم البلاد، سيعتقدون أنني مغتصبٌ للحكم وخارج عن ولاية السلطان، وسيجعلون قواد الجيش جنودي.. رعاياي يضعوا رأسي في المشنقة.

سيننوري:

- وما الذي سيجعله يعود أصلًا؟!

سيف الدين:

- هل جننت؟! أنت لم تسمع ما قاله العجوز؟!

سيننوري:

- بل سمعت؛ لهذا أقول ذلك إذا كان شخص من نسل السلطان له الحكم الشرعي وسيعتلي العرش تزدهر الدولة كما بداية عهدها، شخص من نسل السلطان، هذا صديقه من ريحته سيدي أنا معاليه، وهو أيضًا من له الحق في الحكم؛ لأن سيدي قوي على أعدائه، وهو الأجدر بهذا المنصب، حينها سيعتلي العرش ويجعل الدولة تزدهر كما بداية عهدها، وهذا يعني أنها نفس الدولة ستصبح قوية، يعني الأرض تصبح قوية وليست الأسرة الحاكمة للدولة، أنت تعلم يا سيدي بغض النظر عن الحاكم والمحكوم؛ فالدولة هي قطعة أرض قبل كل شيء.

اتسعَت عينا سيف الدين وظل فمه مفتوحًا!

سيننوري:

- أم ماذا توقعت يا سيدي؟! إذا كان هناك شخص سوف يأتي ليعتلي الحكم، فما بالك بالذي يمتلك الحكم الحقيقي من تحت الكرسي؟!

سيف الدين:

- سيننوري.. أنت عبقريّ حقًا كما سمعت عنك من قبل!

سيننوري بمكرِهِ الأنثوي:

- ألم ترَ سيدي أنا.. سيننوري فقط يريد أن يسعد معاليك سيدي أنا.

***

التفتَت فاطمة لتجد أمامها والدها وهو منتصبٌ في وسط كومة من السواد، وفجأة اخترَق سهم قادم من بعيد جسده لينهال الدم من صدره، وتنتشر الدماء في الأرجاء؛ لتسمع صراخها يدوّي في الأرجاء ليتصاعد وينقسم صداه لأكثر من صوت؛ لتحترق الخيمة التي توجد بها هي وأبوها؛ فتخرج مسرعة لتجد أن الظلام محيطٌ بالأرجاء، ويفصله فقط النيران المتصاعدة والدماء التي تسفك؛ فتجرِي مسرعة إلى أن يلحق بها فارس مغوليّ ويرفع سهمه المسموم؛ فيدخل في منتصف صدرها، وتنهض من النوم صارخة!

اقترب شهاب متنحنحًا من الغرفة؛ فغطت شعرها ووجهها ليدخل عليها وهو ممسك بيده قنينة، ويفرغ ما بداخلها في طبق به سائل شفاف، ويده الأخرى مربوطة ومضمومة لصدره، ليسألها بنبرة هادئة:

- هل أنتِ بخير؟

فاطمة بوجه متجمد:

- الحمد لله يا سيدي.

شهاب الدين وهو ينظر بعينها البارزة من اليشمك:

- هل كان كابوسًا مزعجًا مرة أخرى؟!

فاطمة تومئ برأسها بالموافقة بعينين مثبتتين عليه.

شهاب الدين وهو يناولها الصحن:

- يستحسن أن تتناولي الدواء.

فاطمة تناولَت الطبق بيد مرتعشة يلاحظها شهاب ويبتسم.

قالت وهي تزفر باستسلام:

- حسنًا.. إذا كان لا بد منه.

شهاب الدين:

- يمكنك أن تتعالجي بسرعة بواسطة الدواء، ثم سأدعُكِ تفعلين ما تشائين.

فاطمة:

- حقًا؟!

شهاب الدين:

- بالطبع.. فحينها ستصبح رؤيتكِ أوضَح، ولن ترِي مثل هذه الأشياء المزعجة مجددًا.

فاطمة:

- تقصد الأحلام؟ وكيف لدواء أن يوقف الأحلام؟

شهاب الدين:

- لا يمكن لدواء فعل هذا إذا كانت مجرد أحلام فعلًا، حسنًا سأتركك تسترخين.

نظرت فاطمة ليده المربوطة متعجّبة وهو يغادر مفكرة: "ما هذا الذي يقوله؟ وما هذا الذي يربطه على يديه؟! هل أذَى نفسه وهو بالمدينة دون أن أُلاحِظ؟! وإذا.. كيف يستطيع التعامل بسهولة؟! أنا لا أفهم شيئًا!"

***

دخل السلطان على غرفة أخيه الصغير بابتسامة مشرقة تلاشت ببطء فورما رآه وهو يحزم أغراضه.

السلطان:

- ماذا تفعل؟!

أكمل شهاب الدين حزم أغراضه من دون توقف، السلطان بابتسامة:

- إلى أين أنت ذاهب؟

بوجهٍ خالٍ من التعابير:

- ذاهب إلى الهدوء!

- لكن... ألا يوجد هنا هدوء؟!

الْتفَتَ له بحدة وبرود:

- بالتأكيد لا؛ فمحاربيك دائمًا ما يزعجوني.

- إذًا لهذا انت لا تريدنا... أقصد لا تريدني.

- أنا أريد أن أعيش الحياة التي أريدها، لا التي فُرضَت عليّ.

- لكن بالنظر للأمر إنه شيء مفروض علينا جميعًا، وستكون مفروضة عليك حتى إذا هربتَ بعيدًا.

قال محذرًا وهو يحرّك سبابته أمامه بالنفي:

- لا.. لا! أنا لا أهرب بعيدً، ولكنني أبحث عن مكان آخر أستطيع أن أطوّع فيه ظروفي.

السلطان مجعدًا أنفه:

- ماذا تقصد؟!

- أريد أن أذهب لمكان ما أطوّر به أبحاثي التي ستفيدني وتفيدك في مكان لا يراني به أحد، وهكذا أستطيع أن أكتب قَدَرِي بنفسي بعيدًا عن التمنِّي والرجاء.

نهض السلطان منفزعًا من على فراشه؛ فوجد بجانبه سيف الدين بجانب سريره، كان يستند إلى حافة سريره، وما أن فزع السلطان نهض منفزعًا هو الآخر.

نادى هرعًا:

- نور الدين!

- سيف الدين..

- ماذا حدث؟ هل أنت بخير يا أخي؟!

- وا أخاه!

- نعم أخي؟

قال وهو يزرف الدموع من عينيه بلا انقطاع:

- أخي الحقيقي ابن أبي، الذي لطالما حميتُه تركني وذهب، كل شيء ذهب.

- لا تقل هذا، إنني معك يا صديقي.

- أنا خائف من ألا يرى بعضنا البعض مجددًا، لم أعد أثق حتى في شمس النهار!

تردّد سيفُ الدين في متابعة الحوار حتى لا تسوء حالة صديقه أكثر من ذلك، فقام بصبّ كأسٍ من شراب الأعشاب المهدئ للأعصاب؛ ليناوله إياه قائلًا"

- تناول هذا، ربما يشعرك ببعض التحسن ويُذهِبُ عنك تلك الأحلام السيئة.

رد باستهزاء بوجهٍ متجمد شاحب:

- أحلام! لا يمكن لدواء أن يُذهِبَ الأحلام، ثم إنّها حقيقة.

- إذًا ربما إذا ارتشفتَ البعض يمكنكَ أن تهدأ قليلًا.

قال وهو يقرّبُه من فم صديقه بلطف:

- هيا.. البعض فقط.

ارتشف نور الدين رشفة واحدة منه، ثم غَطّ في نوم عميق.

ما إن نام نور الدين إلا ووضع سيف الدين الكوب من يده متنهدًا ناظرًا بعينين تلمعان بالشفقة على صديقه الذي تربّى معه.

***

صباحًا..

توجه سيف الدين الأنوري إلى مكتبه وهو يبدو عليه التعب، واستدعى مساعده.

سيننوري:

- سيدي أنا.

سيف الدين:

- سيننوري، أريدكَ أن تصدر مرسومًا مسطورًا به أنّه من يستطيع أن يصنع دواءً يشفي مرض السلطان سيكون لديه حفنة من خمس مئة من الدنانير.

اتّسعَت عينا سيننوري من ضخامة المبلغ، ليرد قائلًا:

- سيدي، هل أنت متأكد؟!

نظر إليه سيف الدين بحدة؛ فسحب سيننوري كلامه وهو يحرك رأسه وضفيرته قائلًا:

- لا أقصد يا سيدي، ولكن هذا المبلغ ضخم جدًا لدرجة أنه يكفي لبناء قصر، هذا مبالغ به حقًا!

- نعم، واعقِد لي اجتماعًا بالرّعِيّة عصرًا عند سوق البلدة؛ حتى يصدقوا ما يُقال.

- لكن..

- اذهب الآن وأبلِغ الجميع، وقل لهم أن من يُسرِع سيكون له مكافأة أكبر.

- أمرك سيدي أنا.

ذهب سيننوري بضفيرته التي تتأرجَح على ظهره، وامتطى جواده متوجهًا للقرية.

***

شهاب الدين:

- إني متوجه للقرية.

فاطمَة وهي تغطّي وجهها بخجل:

- حسنًا سيدي.

- هل تحتاجين شيئًا من هناك يا سيدتي؟

- أ.. أعتقد أنني يمكنني تدبر أمري.

- حسنًا.

قالها وهو يخرج من الكوخ فاكًّا عقال جواده، ثم غطَّى وجهه واتخذ طريقه للقرية.

وصل القرية وبدأ يتجول في أرجائها قليلًا باحثًا عن مواد معينة ليستخدمها؛ فجذبته عُشبَة ذات لون أصفر بيّ، وقف أمامها قليلًا وبدأ يتأملها.

قاطع تأمله لعشبته الجميلة صوت الأحصنة السلطانية التي عدَدُها يتراوح بين خمسةِ وسبعةِ أحصنة يعتليها الموظفون الكبار، ومنهم سيننوري مساعد الوزير.

قال منذر السلطنة بصوته الجهوري:

- اسمعوا وعُوا.. إنه من يستطيع أن يصنع علاجًا للسلطان يكون بحوزته خمس مائة دينار بالتمام والكمال، ومن يُسرِع يكون بحوزته أكثر، والحاضر يُعلِن الغائب.

استحْوَذَ هذا الكلام على عقل شهاب الدين؛ فما الّذي حلّ بأخيه السلطان؟! وما هذه التكلفة؟! وما هذا الخبر السيء التوقيت بالنسبة للدولة؟!

تعجّل شهاب الدين في العودة لكوخه بعد أن اشترى بعض المواد التي يحتاجها، عقِلَ جواده ودخل مسرعًا لداخل الكوخ، وأمسك القنِّينة التي تحتوي على العقار الذي كان يعمل عليه منذ فترة، وبدأ في طحن العشبة التي وجدها اليوم وتطوير ما كان يعمل به، فشاهدته فاطمة عن كثْبٍ مراقبةً إياه وهو يعمل بسرعة واقتضاب، ويكتب بتلك الحروف المشقلبة الغريبة في الورقة معدّلًا الصيغة الكيميائية للعقار، وهي واقفة من على بعد تستعجب وتقُول في سرها "ماذا يفعل؟! هل هذا دواء جديد؟! هل هو لي؟! إنه لم يقل لي أنني سأحتاج لعقار آخر، إذًا ماذا يفعل؟!"

اعتكَف شهاب الدين على العمل بهذا العقار ليلًا ونهارًا لمدة يومين متواصلين، يطحَن ويرشّح ويزِن ويضيف ويعدّل الصيغة الكيميائية، حتى عند صباح اليوم الثالث، رفع عينية المتعبتين من على طاولة عملِه رافعًا القنّينة المملوءة بالدواء أمامها وهو يبتسم بانتصار وفخر ممزوجَين بالتعب.

نظرَت فاطمة له بعينين جاحظِتَين من خلف غطاء وجهها الشّبَكِي وهي تستعجب ما تراه؛ فنظر إليها، ثم قال لها:

- هنالك شيء ما لنفعله.

اختفى إلى داخل المغسل، ثم خرج بوجه مختلف؛ ليقول لها:

- هيا! هل أنتِ مستعدة؟

فاطمة وهي تقدُم عليه باستغراب:

- بالطبع.

أفرَغ محتوى القنينة في قنّينتَيْن أصغر منها، ثم قال وهو يمد إحداهما لها:

- تفضلي.

نظرت إلى السائل ذي اللون القرمزي الذي بجوف القنينة، ثم قالت له في تردّد:

- ماذا سنفعل؟!

- أولًا علينا أن نشرب هذا الدواء معًا.

- دواء؟! لكن لمَ؟! أنت لم تقل لي من قبل أنني أحتاج لدواء إضافي!

- لا تقلقي؛ إنه ليس دواءً بالمعنى المقصود، إنه عقار معين.

- عقار! لكن لمَ؟!

- إنه ضد الأوبئة التي تطِير في الهواء ويعاني منها سكان المدينة.

- أوه.. لكنني أشعر أنهم بخير.

- تشعرين، ولكن الأمر ليس كذلك.

قال شهاب الدين وهو يشعر أنه ينهي الأمر.

- حسنًا.. أنا لا أريد.

- لِمَ؟!

- هذا هو ما تعمل عليه لفترات طويلة ثم تدعُني أجرّبه الآن؟ لهذا لم ترسلني للبيمارستان، أليس كذلك؟

- لا.. الأمر ليس هكذا.

- إذَن ما هو الأمر؟! لقد عانيتُ بسبب ذلك الدواء الذي أتناوله منذ أن أتيت إلى هنا، والآن عليّ أن أشرب المزيد من الأشياء كتجربة؟!

صمت شهاب الدين لوهلة، ثم قال باستسلام:

- لم تكن لديّ أية نية لإيذائك من الأساس، ولكن أخي مريضٌ وعليّ أن أُسرع وأنقذه.

- أخوك؟!

- بالفعل، إنه مريض منذ فترة طويلة، وأخشى أنني لن أستطيع أن أسلّمه دواءَه.

- إذَن لِمَ لَمْ تقُل هذا من قبل؟! وما خطب ذلك الدواء المُرّ الذي أتناوله؟!

- الدواء المر الذي تتناولينه هو ليس دواءً، وإنما مصلٌ أنا أصنعه كنوعٍ من الاستشفاء الداخلي الذاتي، هذا لأجلك، وهو أيضًا أعملُ عليه منذ فترة طويلة.

- استشفاء ذاتي من ماذا؟

- ألا تتذكرين؟!

خفقَ قلبها فجأة بداخل صدرها، ثم سألته:

- ماذا؟! أتذكر ماذا؟!

- كيف وجدتك؟

- كيف؟ ألم تكُن أحد الاطباء من جيش الخوردي؟

- لم أكن تابعًا للجيش قط.. أنا طبيب حر.

- لم تكن في الجيش قط؟! إذًا كيف أنا هنا الآن؟!

- أنت هنا بسبب.. لا لا شيء.

- لا شيء ماذا؟

- لقد سألتِني أكثر من مرة، وأنا اعتقدت أنك تتذكرين.

قالت وقد تمسّكَها الهلع:

- أتذكر ماذا؟

- أنا أحضرتُكِ من البيمارستان بالفعل.. ألا تتذكَّرين أي شيء؟

- لِمَ أحضرتني؟! لِمَ كنتُ هناك من الأساس؟

- أنتِ كنتِ هناك بسبب أنكِ ترين الكثير من الهلاوس، وتستيقظين لتؤذي أي بشريّ أمامك؛ لذا أرسلكِ والدكِ لهناك حتى تصبحي أفضل، لكنه لم ينجُ للأسف.

رآها صامتة وهي تحاول استيعاب الكلام الموجّه لها، الذي يدمّر كل ما شعرت به في لحظة واحدة، فأكمل قائلًا:

- كنتِ في المصحة، وأخبروني هناك أن والدَك حاول كثيرًا أن يجعلكِ أهدأ، ولكنكِ كنت مستعصية، وفي آخر نوبة قُمتِ بإيذاء كل من في المصحة، وحاول والدُكِ أن يأخذَكِ من هناك؛ حتى يجنّبك الاعتقال بسبب حالتكِ المرضية، ولكنكِ في النوبة التالية لها قمتِ بقتل كل قريبتك، ولم ينجُ حتى أبيكِ.

استشاطت غضبًا ودموعها تخرج من عينيها المتسعتين:

- لكن أبي قُتِل على يد المغول... لم أكن لأفعل هذا به قطّ.. أنت تكذب!

- أنا مُقدّر ما تشعرين..

صرخَت مقاطعة إياه:

- أنت تكذب!

صمتَت أجواء المنزل لوهلة، ليقطعها صوت صراخها وبكائها.

نظر هو إليها بشفقة، ثم قال:

- سيدتي، أنتِ يمكنكِ أن تصبحي أفضل، صدقيني.

- أفضل.. لكن لماذا؟!

- صدقيني.. يمكنني أن أعالجَك، أنا عكسُهم جميعًا، أنا يمكنني علاجك.

- لا! لا أريد أن آخذَ ذلك الدواء المُرَّ مرة أخرى.

- حسنًا.. اهدأي رجاءً وأنا سأصنع لكِ شيئًا آخر.

أدار ظهره عنها ليبدأ في تحضير الدواء، فقالت له بارتخاء واستسلام:

- أنا.. لا أعلم لماذا؟! لكنني أرَى كل شيء من الماضي، الحرب وكل شيء حقيقيٌّ حقا!

ربت على كتفها بحنّية قائلًا:

- كل هذا سيختفي قريبًا، لا تقلقي.

سارت فاطمة بخطوات قصيرة قليلة الاتزان تجاه الغرفة الوحيدة التي في الكوخ، وهي الغرفة التي تنام بها، جلسَت ثم أرخَت جسدها على السرير ودموعها تسيل على وسادتها الكِتّانية بلا مبالاة، أومضَت إليها ذاكرتها بعدّة ذكريات أو صور من ماضيها الذي تتذكّر أنها عاشتْه جيدًا، وأنه لا مصحة في ذاكرتها أو تعب من والدها حيالها أو حيال مرضٍ ما، كم هو محزن ومثير للشفقة عندما تعيشُ بكل جوارحك في عالم في النهاية، أنت لا تستطيع لمسه أو التأكد من أنكَ تنتمي له أم لا!

أنت تؤمن بكل شيء، أنت تتذكر كل لحظة، لكن للأسف لا يوجد دليل آخر سوَاك، بالرغم من أنكَ أنت هو الشيء المشكوك فيه، لكن...

- أبي!

قال وهو منغمس بعمل الشاي لشخصين.

- ماذا هناك؟

- هذا الكتاب الذي كتبتَه حقًا.. لم أتوقع أنَك ستذهب لهذا الحد هذه المرة، لقد وجدتُه رائعًا حقًا.

- حسنًا سيدتي! ضعِيهِ هناك، أنا خائف أن يحدث له شيء؛ لأنه النسخة الأصلية.

وضعَتْهُ في مكتبة المنزل التي خلفها، لتلتفت إليه باسمة وتردف:

- آسفة.

دوَى صوت الصراخ بالخارج؛ لينظر الأب وابنته لبعضهما البعض، انتشرَت رائحة الحريق وبات الجوُّ غير منذرٍ بالأمان، ترك الملعقة والإبريق من يده؛ ليخرج ويستكشف ماذا يحدث؟ لكن من دون رجعة، انتشرَ الحريق حولها لتخرج باحثَة عن أبيها؛ لتدهش من هول المنظر، الجثث التي تملأ الأرض، والسهام المغروسة ببعضهم، والدماء التي تنبعث من بَثْرِ أعضاء البعض الآخر كالرقاب والسيقان، أو حتى بقر البطون والشَّقّ، وفصل النصف الأيمن من الجسد عن النصف الأيسر! الجنود الذين يرتدون خوذات علها قرون حيوانية ويمتَطُون أحصنة، اتّسعَت عيناها شاهقة؛ ليلتفت لها رأس متوجَّةٌ بالقرون في منتصف الليل الدامس، فرّت هي هاربة مع رغبتها بأن تبحث عن أبيها، لكن من دون استطاعة، جرَت بأقصى ما عندها؛ ليكون هذا آخر ما تتذكره.

حدث هذا في الليل بينما كنتُ جالسة مع أبي وكنا نتسامر بشأن الكلام الذي يكتبُه في كتبه التاريخية، كم أحببتُ الجلوس معه والاستماع إليه ولحديثه وأفكاره، هل يُعقَل أنَه رغم كل حبي له أنَه تألّم بسببي حقًا! هل غالَبَهُ مرضي طوال وقت طويل؟! أنا آسفة حقًا، لكنني لم أستطع أن أحميك ولا أن أحافظ على مقتنياتك التي أحببتَها كثيرًا، الآن أنتَ لستَ معي، لكن أنا سعيدة بالوقت الذي حمَيتَنِي به وكنت بجانبي به.

امتلأَت عيناها بالدموع؛ فتغلقهما لتسيل ساخنة على خدها..

- أبي، كنت أريدُ أن أراك مرة أخيرة فقط، لا أريد أن أتصوّر أنني أذيتك أنت!

قالت لنفسها بأفكار تطنّ في أذنها مثل الورم:

- إذن.. هل عليّ أن أعيش هكذا حقًا، أدوية ومصحة ومثل كل ذلك الألم، أنا لا أشعر بشيء غريب حقًا، ولا أريد أن أشكّكَ مشاعري وجوارحي، ألا يمكنه أن يكون كاذبًا فقط؟! ولكن أبي!

شعرَت فاطمة بألمِ قلبها ينتشر بكل مكان بجسدها، ودموعها لا زالت تسيل على وسادتها، ثم لا شيء بعدها؛ فقد انفصلت عن العالم فجأة.

استمرّ هو في صنع دواء أخيه ثم دوائها وهو غارق في التفكير؛ كيف ستكون حالة أخيه عندما يراه؟ هل سيكون مريضًا أو منهكًا فقط؟ هل سيرحّب به أم لا؟ هل سيسامحه أم لا؟ أم سينسَى كل شيء ويضمه لصدره؟ ولكن كيف هو مريض؟! وما مدى سوء حالته؟! عمومًا هذا لا يهمه؛ فقد كان يعمل على هذا الدواء لفترة طويلة من حياته، حتى أنّه لا يمكن أن يخزيه، بالتأكيد هذا سيشفيه، حتى إذا كان سيموت من الألم.

ولكنه يعلم أنه يكذب فقط، وأنه لا يوجد دواء يستطيع أن يعالج كل شيء حتى وإن عمل طوال حياته عليه، أو حتى وضع حياته كلها هو مع حيوات الأطباء الآخرين به، عمومًا هو دائمًا ما يرى أنه استثنائي؛ فهو بإمكانه عمل المستحيل؛ فقد شفَى الكثيرين حقًا من أمراض عديدة، ولكن عدوّه كان دائمًا هو مرض واحد، وهو يدعو ربه ألَا يكونَ هذا هو نفس مرض أخيه؛ فحينها لن يستطيع أي دواء في الكون أن يريحَه منه.

العالم الحقيقي الذي لا أتذكّر شيئًا منه

أحسَّت فاطمة بشيء ما يدغدغ ويحرق عينيها؛ فجعّدَت جفونها لداخل تجويف عينيها، ثم فتحتهما لتجد النور الأبيض لشمس الضحى يملأُ الغرفة، وأمام عينيها قنينة من سائل شفاف مائل للزيتوني.

تنهّدَت فاطمة وأحست بأن هناك ثقلًا على صدرها لا تستطيع تخطِّيه يعكّر صفوها؛ فهي تشعر أنها لا تستطيع أن تكون حرة الآن بعد ما سمعته البارحة.

تجاهلَت الدواء، وخرجت لتجد شهاب الدين نائمًا وهو ساندٌ وجهه على طاولة عمله؛ فجاءت بغطائها وغطّت به ظهره، ليتململ وهو يحك أنفه بذراعه، وتراقبه هي بهدوء لتقول لنفسها:

"هل يمكنني ألا أصدّقه حقًا؟!"

فتح هو عينَيْه فجأة؛ فوجدها أمامه وهي تحدّق به؛ فأخذ نفَسًا عميقًا وأرجع ظهره للوراء إلى مسند الكرسي، ناظرًا إليها باسمًا:

- صباح الخير يا سيدتي.

- سيدي، صباح الخير.

قالت وهي تنظر إلى الأرض بخجل وتغطّي وجهَهَا:

- كيف هو حالك؟

- بخير.

نهض من على كرسيه، وقد تخطّاها متوجهًا للحمام.

ثم عاد أدراجه وهو ممسكٌ بمنشفته الكِتّانية ويطبطب بها على وجهه، ثم التقط قنّينة الدواء من على طاولته، فقال:

- هل تناولتِ دواءَكِ؟

قالت بتوتر وهي تبعد وجهها عنه، متجنبة أي حوار عميق:

- أ.. أنا، لقد..

قاطعها هو مبتسمٌ بخفة:

- حسنًا حسنًا، يمكننا تناول الفطور أولًا.

قالها وهو متوجهٌ للكانون وبدأ بتحضير الطعام، ثم صفّ الأطباق على المائدة، لتنظر هي إليها من فوق بإعجاب وتقول:

- سيدي، أنت حقًا تجيد الكثير من الاشياء.. طبخٌ وكيمياء، ماذا تستطيع أن تفعل أيضًا؟

شعر هو بأنها تستدرجه لاستجواب حتمي؛ فابتسم ناظرًا للقدر:

- الكيمياء هي ما أحب، والطبخ هذا شيء يجب عليّ أن أجيده؛ بما أني أعيش بمفردي.

- ولِمَ؟!

شعر أن الاستجواب مستمر، ولكن في مسار يروق له.

- أنت تعلمين، هذا لأنني عازب وبعيد عن أهلي.

- أنت بعيد عن أهلك بسبب عملك هنا لإنقاذ الناس، أليس كذلك؟!

قال وهو يمر بجانبها ممسكًا بالخبز ليضعه على الطاولة:

- تقريبًا.

قطبَت حاجبيها ناظرة إليه وهو يمرّ، وتسأل في نفسها "ماذا؟! تقريبًا! ألا يعلم؟!"

ثم سألته بنبرة منعمة:

- أأنت وحيد منذ فترة طويلة؟

قال وهو يحرك رأسه:

- نعم.

- ألا يزعجكَ هذا؟!

اكتفَى شهاب الدين بالابتسام وهو ينظر للأرض؛ فهو يعلم أنه دائمًا يطوق لشخص ما يقتسم معه زادَه وابتسامته ودمعته وآلامه الماضية ومستقبله؛ فهو كان دائمًا وحيدًا حتى وهو بقَصْرِ أبيه السلطان، ولم يكن هناك من يفهمه حقًا! حتى أخوه المُحِبُّ كان يتصرف بطريقته الخاصة معه؛ ممّا جعله يشعر أن لا أحد في العالم -مهما كان قربه- يستطيعُ أن يفعلَ له ما يريد، أو أن يسدّ حاجته التي لطالما طاق لإشباعها، لكن.. هو يشعر أن الأمر الآن مختلف، ولا يعلم لماذا لكنه مختلف! أي أنّه مختلف بدون سبب منطقي، أو بسبب لا تراه بصيرته.

لاحظَت فاطمة شرود ذهن شهاب الدين؛ فقطعته حتى لا تجعله حزينًا:

- هيا بنا نأكل.

قالتها وهي تأخذ نصيبها لتأكله بمفردها بغرفتها.

- يمكنكِ أن تأكلي معي.

الْتفتَت إليه مترددة:

- حسنًا، لا بأس.

جلسَت فاطمة أمامه على الطاولة؛ فناولته خبزَه وتناولت أخرى وبدأت في الأكل بهدوء وخجل أحسّه هو؛ حيث أنها ليست بهدوء الأعصاب هذا، فتوجد أحيانًا كثيرة لمَسَ بها عصبيّتها وفضولها، لكنه الآن يشعر بشيء مختلف.

كان يتناول شهاب لقمة ثم يحدق بها دون أن تشعر به، وظل يترقبها خُفيَة.

شعرَت فاطمة بدفء غريب يجتاحُها وهي جالسة أمامه، عندما تنظر لملامحه وعندما يبتسم إليها، وعندما يعاملها برفق، حيث أنّها لم تكن تشعر بذلك قط من قبل؛ فهي اعتقدَتْه شخصًا صعبًا ولديه شخصية حذرة، لكن بعد الحوار الذي دار بينهما قبل بضع دقائق جعلها تشعر أنهما متشابهان؛ حيث أنّ اثناهما بعيد عن أهله، ويبدو أنَه مرّ بظروف صعبة بعد أن تركه والداه، أو أصيبوا بمقتل لقيا به حتفهما مثلها، وهذا ما يشبهُه فيها ويجعلها تشعر بالأمان.

أنهَت هي طعامها وغسلت يدها، وهمّت لدخول الغرفة ببطء، لكنه أوقفها بقوله:

- أنا متوجّهٌ للمدينة إذا أردتِ المجيء.

قابلَت تردده باستغراب مضيّقة عيناها؛ فأضاف:

- أو إذا أردتِ شيئًا من هناك.

- لا، لابأس.

- أعتقد أنه من الأفضل أن تقابلي الناس، وألّا تكوني منغلقة.

- لكن.. هم يزعجُونَنِي.

زفر قائلًا:

- لا تقلقي.. لن يحدث شيءٌ سيّء.

نظرَت إليه بوهن؛ فقال:

- صدقيني، ستكونين بجانبي إذا أردتِ.

- حسنًا.

مستسلمة.

***

السوق اللعين

سارت فاطمة في السوق وهي تغطّي وجهها باليَشْمَك الذي تَبرُز عينَاها السوداوين منه ناظرة للأرض، ومرتدية عباءتها الكحليّة التي تطُول لتلمس الأرض بأطرافها، وهو يمشي أمامها مغطيًا وجهه متوجهًا ناحية صناديق الخضروات والأعشاب التي تتجمع حول بائعِيها المتجمّع حولهم الزبائن، شق هو طريقه بينهم، بينما انتظرَت هي بعيدًا قليلًا عن الرجال، شعرت بالانزعاج قليلًا من صوت الباعة المتعالي، بينما الرجال يقفُون يتسامرون، والنساء اللاتي تغطين وجوههن يتبضعون وهن يتحدَّثْن عن خبائث وطيب الناس، المارّة والباعة وكل من يرينه، من يعرفنَه ومن لا يعرفنَه.

قطع صوت السوق المرتفع صوتُ صهيل الخيول القادمة من السلطنة؛ ليجذب المنادي الناس بصوته الجهوري وهو ينادي بخبر مسجُوع الكلمات:

- اسمعوا وعوا.. لكل من يستطيع أن يصنعَ دواءً خاصًّا للجلالة السلطان؛ فليتقدم في يوم الجمعة في الضحى لتسجيل اسمه، لكن ليعرف كل متقدم أن هناك اختبار للدواء الذي يقدّمه، ومن ينجح دواؤه بالاختبار؛ فله الكرامة والإجلال والدنانير وكل الطيبات، ومن لا ينجَح دواؤه؛ فله المهانة والذل وقطعِ الرأس في الحال، والحاضر يُعلِم الغائب، ودمتم طيبين وكرام.

انقبَضَ قلب شهاب الدين، وأُفجِعَ الناس من هذا البند المفاجِئ الخاص بقطع رأس من لا يستطيع أن ينجح دواؤُه في شفاء السلطان؛ فتقدم سيننوري مساعد الوزير للأمام نحو صفوف العامة، ونزل من على خيله وانخرط بجانبهم، وجلس بجانب الرجال والسيدات الجالسين على جوانب الطرقات قائلًا بخبث وهو يفتح يديه:

- ما هذه الشروط المفجعة أيها المنادي؟!

ثم الْتفَتَ للناس، وقال بصوت منخفضٍ بنبرة تشبه الثعبان:

- إذا كنت أنا؛ فلن أذهب أبدًا.

شهقَت السيدات وهن يُمَصْمِصْنَ شفاهَهُنّ.

- حتى وإن كان مريضًا؛ فلا! يموت ويأتي من هو أفضل منه.

ثم أكمل الثعبان ببخّ سمه للعامة:

- هناك من هو أفضل بكثير، من يعتقد نفسه؟!

نظرَت السيدات لبعضها، فقال:

- أستنتظِرْنَ حتى تَرَيْنَ العجب يا نساء؟ هذا المجنون يحكمنَا ولا زلنا نريده.

لمَس منهُنّ تأثرًا؛ فأضاف وهو يمثل بجسده باستعراض:

- المجنون الذي يستيقظ في الليل ليصرخ "حبيبتي.. حبيبتي".

انفجر الناس بالضحك بصوتٍ عالٍ:

- إذا كان بيدي القرار؛ فلن أسمح بأن يظل أبدًا.

تهامَسَ الناس رجالًا ونساء بألفاظ مثل: مجنون.. مجنون ومريض، ولا نريده، ومثل هذه الأشياء.

جذب شهاب الدين فاطمة من يديها ووجهها معه لجواده، وشقّ طريقه في الصحراء بسرعة وعصبية مفرطَين، وما إن وصلا ودخلا حتى لاحظَت أنه في نَفْس حدّته منذ سمِعَ الخبر في السوق، فقالت له:

- السوق اليوم كان ممتلئًا، إنهم قالوا..

- إنهم قالوا؟!

- هل أنت بخير؟

- الحمد لله.

- ما بكَ يا سيدي؟!

قال وهو يلتفتُ لطاولة عمله.

- لا شيء.

- لكن هل السلطان مجنون حقًا؟!

التفَتَ لها وهو يطلق الكلمات خارج فمّه بعصبية:

- هذا كَذِب.

حاولت فاطمة الصمود أمام عصبيّته:

- حسنًا.

- هؤلاء الملعونون يستطيعون قول أي شيء فقط لتضليلك.

- حسنًا.

- لتنفذِّي رغباتهم فقط، لا يوجد منهم صادق أو كاذب.

- حسنًا.

انكمشَت فاطمة داخل نفسها بسبب خوفها من الوجه الثاني لشهاب الدين، وتوجّهَت للغرفة؛ فزفر شهاب بتأفّف وهَمّ.

بعد ساعتين من الوقت تقريبًا نادى شهاب فاطمة حتى تتناول الطعام؛ فحضرت فاطمة بوجهٍ يبدو عليه الحذَر وعدم الاطمئنان؛ حيث أنَّها لم تجرؤ أن تطلبَ منه أن تأكلَ بالداخل بمفردها.

حاول شهاب أن يمُدّ لفاطمة الاطمئنان من جديد بواسطة تعبيرات وجهه، أو أن يجعل كلماته أكثر رقة؛ حتى لا يجعل الفتاة تخاف أكثر مما يبدو عليها.

أشار لها بيده أن تجلس على الكرسي، ومدّ أمامها أطباق الطعام؛ فجلسا هما الاثنان بجوٍّ شبه كئيب ومتحفّظ؛ لذا حاول هو أن يكسر هذا الصمت قائلًا:

- أأ.. اليوم.

فلاحظ من تعابيرها أنّها لم تتجاوب معه، وأنها لا زالت مشدوهة وخائفة.

- أنا.. أنا أسف لهذه الطريقة التي حدّثتُكِ بها في الصباح.

رفعَت هي نظرها من على طبقها، ليقول هو:

- أنا لم أقصد أن أفعل ذلك.

- حسنًا.

- فعلًا، أنا أعتذرُ منكِ يا سيدتي.

تركت الجو يهدأ قليلًا، ثم قالت:

- حسنًا، لكن لِمَ أصبحتَ غاضبًا فجأة؟

زفر شهاب باستهزاء؛ فأضافت:

- هل أنت تكره الموظفين التابعين للسلطنة؟

- حسنًا، يُمكنكِ قول هذا.

- لكن هل ما قالوه صحيحًا؟

- حول ماذا؟

- حول السلطان.

- لا، هم ليسوا على صواب أبدًا.

- لكنهم بجانب السلطان دائمًا، بالتأكيد هم يعرفون حالته.

هزّ هو رأسه بالنفي محاولًا ألّا يتعصّبَ؛ فأكملَت هي:

- أم أنّكَ تحب السلطان، هذا مذهبك السياسي أنا لا دخل لي به.

- لا، أنا لستُ متعصبًا لأني أعرف السلطان، أو لأنني أحبه فقط، بل بسبب الاثنان.

- الاثنان؟! كيف يكون هذا؟ هل تقربُه؟! أنت على بُعْدِ الخَمْسَة آلاف ذراع منه على الأقل، إذًا كيف تكون على مقربة منه؟!

- أنا على مقربة منه بالدم! فهو أخي.

- أخ.. أخوك؟!

زفر حتى يُقِرّ بالسر الذي يحمله لمدة طويلة:

- نعم.

- هل أخوكَ المريضُ هو السلطان؟ إذًا لِمَ أنت هنا وحيد؟! ألم يمُت أهلُكَ جميعهم؟!

- أهلي كلهم ماتوا، لكن ليس هو.

- وأنت تريد أنت تصنع له دواءَه وأنت هنا؟

- نعم.

- إذًا لِمَ تبعد عنه؟! لِمَ أنت وحيد؟! لِمَ تركته وجئتَ لهنا؟!

صمتَ شهاب الدين؛ حيث شعر أنه ليس مضطرًا أن يبوح بكلمة تخصّه أكثر، حتى أردفت فاطمة بعصبية:

- أنت.. أنت أسوأ حتّى مما توقعته!

تنهّد هو بعصبية، وهي تضيف:

- لقد توقعتُ أنَك وحيد بسبب أن أهلَك تركوك لسبب ما، لكن الحقيقة هي أنَك من تركتهم.

- أتودّين أن تعلَمِي الحقيقة؟

- ماذا؟

- المستشارون والموظفون وكل شيء، هل تستطيعين أن تكوني محاطة بكل هؤلاء الناس الذين يفرضُون عليكِ مقاييس معينة حتى تصبحي بوظيفة طوال عمرك أنتِ تبغضينها، ولا يمكنكِ فعل شيء حيال الضغوط والمخاطر والدولة التي يجب عليكِ حمايتها من كل

هؤلاء الأعداء؟ الدولة التي نعيش بها والتي تُعدّ في ظروف صعبة بسبب انفصالها عن الإمبراطورية الشرقية التي تهدّد استقلالَكِ وتريد بغاراتها المتعددة أن تضغطَ عليكِ وعلى كل من يعيشون بجانبك؛ حتى تعودِي لسلطانها البغيض، وسقوط الإمبراطورية ذاتها بيدِ العدو المغولي البغيض الذي لا يمكن لجيش أن يقف أمامه، ولا يمكن لأحد أن يحيا بعد مواجهته، هذا هو كلام السلطان والمستشارين الذين يحتلّون الكراسي؛ حيث ألّا يستطيعَ أن يفعلوا بكل خبرتهم وجبروتهم سوى التعايش مع هذا الوضع، بينما أنا... أنا صنعتُ الأفضل؛ دوائي الذي أطوره، وكل شيء.. كل شيء جيّد.

- دواء؟!

أجابها وهو يشهر قنينة مملوءَة بسائِلٍ قرمزي اللون:

- الدواء.. الدواء الذي يمكنه أن يجعلكِ تصمدين أمام كل هذا.

- أنا لا أفهم.. أيُّ دواء؟!

- هذا الدواء هو ما كنتُ أعمل عليه منذ أن كنتُ صغيرًا، وهو ما تركتُ القصرَ بسببه، وهو يضعك في حالة موتٍ ذاتي مؤقت.

- موتٌ ذاتيّ مؤقت؟! لماذا إذَن؟

- عندما يأتي المغول المدمرون ليحاربونا، إمّا ننتصر عليهم بعد أن يخرّبُوا مدينتنا بسبب ظروف الجيش وأحوال السلطان الراهنة، وإمَّا لن نفلح في مواجهتهم وسيُذبَح الناس، ويتم أسرُ الجنود المتبقيين، بينما هذا يجعلُكِ في حالة الميّت من حيث المظهر الخارجي وضغط الدم وكل شيء! وحينها لن يُقدِمُوا على محاربة شخص ميت مدفون تحت الأرض، وبعد انتهاء مفعول الدواء بعد الخمسة قرون تقريبًا ستنهضين من جديد بدون أية معاناة.

وقفت فاطمة مرهُوبة من وقع الكلمات عليها، ثم قطع شهاب الدين رهبتها:

- صدمة.. أليس كذلك؟

حرّكَت فاطمة رأسها ببطء بالموافقة.

- حسنًا، الجميع هكذا فلا تقلقي.

أردفَت فاطمة بوجهٍ شاحب:

- لكن.. هل أجريتَ الاختبار والتجربة عليه؟

- حسنًا، أنا أحاول فعلَ هذا، لكن لا أحد سيوافق.

- حسنًا.. أريد أن أذهب للبيمارستان.

- لكن لم؟!

- أريد أن يتمّ علاجي هناك.

- لكن.. أنا طبيب أيضًا!

قالت وهي تدلف للداخل:

- لا أوَدّ العلاج الذي أتناوله هنا، أريد علاجًا آخر.

نظر شهاب الدين نحو السماء بتوسل، ثم مضَى إلى طاولة عمله ليفكر في دواء آخر لها؛ حتى لا تحكّم رأيها أكثر.

***

استيقظَت في الصباح الباكر وهي تشعر أنها مثقلة بالأحزان؛ لتجدَ شهاب نائمًا كعادته على طاولة عمله؛ فوضعَت عليه غطاءً رقيقًا من الكِتّان؛ ليمد إليه بعض الدفء، ثمّ بدأت في ترتيب الكوخ وإعداد طعام الإفطار.

استيقَظ وهو يفرك أنفه بظهر يده، ثمّ توجّه للحمام، وعاد منه منتعشًا وهو ينظر لها بابتسامة عريضة؛ فقابلته بوجه حزين عبوس؛ لذا قام هو بتبشيرها.

- لا تقلقي.. لقد صنعتُ لكِ دواءً جديدًا.

هي وقد فردَت قسماتِ وجهها الحزينة:

- حقًا؟

هز إليها رأسه بالموافقة وهو مبتهج.

قالت:

- إنه خبر جيد.

- إذن! هيّا نتناول الإفطار.

جلس على الطاولة وهي أمامه، وتناول الطعام بشهيّة مفتوحة وهو ينظر إليها وهي سعيدة، شعر أن هناك شيئًا ما إضافي في حياته، أو أن كل الأشياء التي كانت تزعجه لم تعد موجودة الآن، هو لا يعرف لِمَ يشعر بالارتياح الغريب هذا! لكن الأمر يعجبه ويروق له.

أكملَا طعامهما بسعادة وهدوء، ثمّ ناولها قنّينة بها سائل قرمزي اللون، ولكنَها لا تهتم لطالما لن يؤلِمَ لها عظامها، أو يجعلها دائخة طوال الوقت مثلما كان يفعل الدواء الأول؛ لذا فهي ليسَت مهتمة.

هزت كتفيها بلا مبالاة وهي تتأمل السائل، ثم ارتشفَتهُ بأكمله على جرعة واحدة أمام حدقتَيْه اللامعتين، ناولته القنينة الفارغة، ثم شعرَت بشيء ما غريب يحوم حولها بسرعة، كأنّه شيخ عجوز يرتدِي عباءةً سوداء من الكتان المهترئ، يدور بسرعة كأنّه يُغلِّف الدائرة التي تقف بها بالأشباح السوداء، شعرَت بنَفَسِها يختنق، وبقلبها وهو ينهرع

ويكاد يخرج من مكانه، حتى دبَّ العجوز أصابعه النحيلة المجعّدة في صدرها، وقبضَ بأظافره السوداء محيطَ قلبها وأخرجه من مكانه محدثًا صوت انكسار الأضلاع، وهو يضحك بصوت مدوٍّ مؤلم كأنَه طنِينُ نحلٍ مرتفع حوله صراخ، ثم اختفى ومعه انقَشَع السواد، وهبطَت هي أرضًا بلا حراك أو مقاومة.

بعد قليل فتحَت هي عينيها وهي على السرير؛ لتجدَ شهاب الدين أمامها بعينين متسعتين مملؤتَين بالشفقة.

- هل أنتِ بخير؟

- أنا.. أين أنا؟!

- أنتِ هنا في الكوخ بغرفتك، هل هناك شيء ما؟

قالت بعقل مشوّش:

- أنا...

قاطعَهَا الشبح وهو خلفَ شهاب يحدّق بها.

- ها هو!

نظر شهاب الدين ليمينه ويساره وهو يهز كتفيه متعجبًا:

- ما هو؟!

صرخَت وهي تنهار وتلوّح يدها في الهواء بحركات مضطربة:

- ها هو.. بجانبك!

- ما هو؟! لا يوجد شيء!

أكملت هي صراخها وبكاءَها؛ ليضيف وهو يدنو منها:

- عزيزتي، اهدأي.. لا يوجد شيء.

ظلّت تصرخ وتصرخ، ليقول هو:

- لا شيء، إنّها مجرد هلاوس صدقيني.

بدأت فاطمة تنتحِب بخوف كالأطفال الصغار؛ ليغرب هو من أمامها متعجبًا، ثم عاد ومعه كوبٌ من الماء وضعه في يدَيها؛ فلاحظ أنهما ترتجفان؛ فأشربها هو ببطء رشفة ماء داخل فمها، لتهدأ هي تدريجيًا وتريح رأسها على وسادتها وهي تتنفس بصعوبة، اطمأَنّ عليها وخرج من غرفتها وأغلق الباب خلفه، وهو يجيل عينيه أمامه متعجبًا.

- ما هو؟! ماذا بها؟!

ظل متسمرًا لوهلة أمام بابها، ثم توجّه لطاولة عمله ووضع عليها كوبَ الماء، وظل يتأمله وهو مستغرب مكُشِّر.

- ما بالها؟! أنا لا أفهم شيئًا!

***

بعد عدة ساعات نهضَت فاطمة من على سريرها بصعوبة مستندَة على عمود السرير، وسارت خارج الغرفة بخطوات متأرجحة، بينما تبدو كتلةٌ أعلى ظهرها مثل الكدمة الكبيرة، أحسَّت فاطمة بشعور غريب؛ فوجّهَت يدها تجاه الكتلة محاولة أن تتحسّسها وهي تشعر أنّها لا تؤلمها، شعرَت بوخزٍ في عظامها وكأنّها تُبنَى من جديد، تباطَأَت للمغسل وهي تشعر برغبة في التقيّؤ.

رفعت رأسها من الطِّسْت لتجد شهاب الدين نائمًا على طاولة عمله مرة أخرى، تقدَّمت نحوه بخطوات متباطئة مترنّحة، ونظرت لوجهه بتمعنّ؛ لتجد نفسها تتساءل:

- أريدُ أن أثق بك، لكن عقلي لا يجد سببًا كافيًا!

ثم أكملَت إمعانًا وتأملًا في وجههِ الأسمر الصغير، التي تبدو عيناه به كشقٍّ ينبثقُ منه رموش وهو نائم.

- أريد حقًا أن أثق بك.. ستقعِين في الهاوية يا فاطمة، تأكدي.

ألاحَت بنظرها عنه لتوجّه نظرها باستغراب على الورقة التي يكتُبُ عليها بالحروف المقلوبة.

- إنّها تتجدد، لا أعرف أهيَ نفس الأخيرة أم واحدة أخرى؟!

تركتها على الطاولة بلا مبالاة، وتوجّهَت لسريرها بتباطؤ وترنّح، وهي تتأوه من ألم عظامها.

فتح عينيه وتمعّن في الآفاق قليلًا، ثم نهض وهو يستنشق الهواء مُحدثٌ شهيقه صوتًا عالِيًا من أنفه، تمطّى وهو يرجع بظهره للخلف؛ فلاحظ ما إن وقعَت عيناه على المكتب الورقة التي كان يكتب بها الصيغة الكيميائية للدواء، دسَّها بين أوراقه الكثيرة الموجودة أمامه، وتوجه للطست وغسل وجهه، ثم جهّز الطعام وتوجه للغرفة؛ لكي يستدعيها حتى تأكل معه، فوجدها متكومة على السرير مكشّرَة وجهها بسبب الألم، نظر إليها بصدمة كبيرة، ثمّ توجّه لطاولة عمله وعاد مناولًا إيّاها قنينة دواء، أقنعَهَا أنها ستصبح أفضل بسببها، لكنّ يدَيْها كانت ترتعشان؛ فوضَعَ فوّهة القنينة عند فمها، وقام بإنزال السائل به، ما إنْ شعرَتْ به في جوفِها حتى انكمش جسدها؛ فأمسَك معصمها برفْقٍ حتى تنهض، ولكنها لم تستطع الوقوف؛ فأحضر لها عصيدة بطبقٍ غويطٍ، وبدأ بإطعامها إياه بلطف؛ حيث أنّها لا تقدِرُ على فعل أيّ شيء.

ترك شهاب الدين الغرفة وخرج وهو مغموم؛ لأنه يشعر أنّه يمكن أن يُودِي بحياة فتاة بريئة بسبب غرورِه وضلالِه، كان يعلم أنّه واثقٌ من نفسه كثيرًا، وأنه يصنع الأدوية الأفضل، لكن هذه المرة فإنّه قد

بالغ، حيث أنّها لم تكن من المعنيّين، لقد عبثَ بها وبصحّتِها فقط ليثبت نفسه، شيءٌ غيرُ شرعيّ كهذا يمكن أن يزجّ به في سجن الندم طوال حياته، يستطيع أن يقلِبَ حياته الهادئة التي رسمها لوابل من الصراع النفسي البغيض.

قال وهو يحدّث نفسه ببطء ناظرًا للأرض:

- أنا.. أنا سأعيد كل شيء كما كان.

في هذه اللحظة قلبُه يتمنَّى ألّا يكون الوقت قد فات، قلبُه وليس عقله الذي يحذّره من الوقوع في الخطأ هذه المرة، قلبُه يخفق بسرعة ويعتصر داخل أحشائِه، وإذا حدَثَ وفقدها بسبب غروره؛ فإنّ قلبه هو من سيتألم وليس عقله!

توجّه لطاولة عمله بسرعة؛ ليكمل عمله بعصبية، بشهيق وزفير سريعين مسموعَي الصوت، نظر إلى غرفتها بطرف عينِه قائلًا:

- سأعيد كل شيء.. لن أفقدكِ.

***

نزل المنادي للسوق، ونادى:

- يا أهل المدينة الخورديّة الكرام، ستُقَام مسابقة لاختبار الأدوية التي صنعَهَا الأطباء لعلاج السلطان، وعليها أن تكون في ليلة اكتمال القمر، بعد ثلاثة ليالٍ بالتمام والكمال، وعلى كُلّ من يريد أن يشتركَ أن يأتيَ ومعه دواؤه في موعد المسابقة والخضوع للاختبار، والحاضر يُعلِنُ الغائب.

أنهى المنادي إعلانه، وهمّ بتوجيه حصانه للعودة؛ فوقع نظره على سيننوري الجالس مع النساء في السوق وهو يتودّد لهم؛ فابتسم باستهزاء وعاد بحصانه للقصر؛ فهو عادة ما يرى سيننوري حائمًا في

السوق وهو يتحدّث ويتودّد للسيدات اللاتي يتبضّعن، وهُنّ يشهَقْن وينظُرْن لبعضهن ممصمصات أفواههنّ من كل كلمة يقولها سيننوري في حق السلطان.

مشى شهاب الدين وبجانبه فاطمة في السوق، فنظر للبضائع والنباتات من أعلى منتقيًا أغراضًا معيّنة وفاطمة بجانبه جامدة كالصنم، نظر سيننوري إلى شهاب الدين بإمعان؛ حيث أنَه ينتقي أعشابًا معينة، والشيء المشترك بها أنها جميعا لها قدرة علاجية بشيء ما، اغتاظ وشعر أنّه يحترق من الداخل، لكن بطريقة غير ملحوظة وهو يذمّ شفتَيه من الغيظ، وظلّ يترقب الشاب الطبيب بإمعان؛ فلاحظ أنّه يُراقِب -وهو يشتري- سيدّةً شابّة واقفة لجواره في الجانب الآخر، لاحظ أنّه لا يراقبها ليتأكد من وجودها فقط، وإنّما تسقُط عيناه عليها بين الفينة والأخرى بهيَام، وهذا النوع من الهُيَام لا يصبح ظاهرًا أمام أعين الناس الذين غير متمكنِّين في أمور القلب هذه، فهو لاحظَ من حركة صدره أنَه يتنفّس أسرع عندما ينظر إليها، ورغمَ أنّه كان مُركّزًا فيما يشتريه إلّا أنّه كان يعتني بها بشدة؛ فهو اجترّ لها صندوقًا لتجلس عليه فيما بعد، وأيضًا اشترى وردة دسّها بين أعشابه حتى لا تلحظها، إذن! هذه هي رأس الأفعى، الأفعى الزعيمة ابنة الخوردي التي تستطيع أن تعتلِي العرش متى تشاء، ولكن لن يحدث هذا ما دام أنّ سيننوري يفكّر.

عادا للكوخ وقد سبقتْهُ فاطمة، في حين أنّه يعقل حصانه ودلف وراءها للداخل، وبدأ بوضع أعشابه وأشيائِه على طاولة العمل، ثم صمت لهنيهة وهو غارقٌ في التفكير بشيء ما، ثم نظر إليها وهي في غرفتها بطرف عينه متأملًا إياها قليلًا، ثم أزاح عينيه عنها بسرعة، ملأ صدره بالهواء ثم زفره ببطء، وأجبر نفسه على التركيز، ثم بدأ بتركيب الدواء الخاص به.

تقلّبَت فاطمة على السرير ببطء وهي تشعر أن هناك شيئًا ما يؤلمها، ففكرت "ألم يحن موعد الدواء بعد؟!"

فتركَت سريرها وخرجت، لتراه واقفًا يعمل أمام طاولة عمله؛ فاقتربت منه وسألته:

- ألم يحن موعد الدواء بعد؟

فلم يجبها، بل لم يلتفت إليها حتى، فكرّرَت سؤالها، ولكنه لم ينتبه إليها أيضًا؛ فجعدَت وجهها متعجبة، ولكنّها شعرت بشعور غريب كأنّ شيئًا ما يؤلم قلبها، فصرخت، ولكنّها شعرَت أنّ هناك حائطًا يفصل بينها وبينه ويجعل صوتها غير مسموع؛ فصرخت وصرخت أكثر، ولكنّه لم يلتفت إليها أبدًا!

أحسَّت أنّ حلقَها يحرقُها بشدّة، وفجأة سقطت على الأرض وانقطعت عن العالم المحيط بها.

بعد عدة دقائق فتحَت فاطمة عينيها؛ فوجدت شهاب الدين أمامها؛ ففتحت فمها لتتحدث معه، ولكن الصوت لم يخرج! ففهم شهاب الدين الذي حدَثَ؛ فقام بإطعامها العصيدة في فمها، حيث أن يدَيها كانتا ترتعشان وجسدها وَهِن، وقام بإعطائها الدواء.

فسألها:

- أفضل؟

فأجابته براحة:

- بالفعل.

- حسنًا، يجب أن تحذرِي على نفسك في الفترة القادمة سيدتي، يجب أن تكوني بصحة جيدة.

- شكرًا... لكن ما الذي حدث؟!

هز كتفيه وقال:

- لا شيء! إنّها مجرد مضاعفات.

- لكنني لم أكن قادرة على التحدث أو التحرك بشكل سليم، ولا أي شيء، لقد شعرت.. لقد شعرتُ بأنّ هناك حاجز بيني وبينك.. أنا..

قاطعها بهدوء وهو يحاول أن يطمئنها:

- أعرف.. أعرف.

- إذًا ماذا كان هذا؟! لم أكن أتحدث وأشعر بأنني بعالم غريب، والآن أتحدث! ما هذا؟!

- حالتُكِ تصبح أفضل، هذه مجرد مضاعفات، صدقيني!

تأمّل وجهَهَا قليلًا وخرج.

قالت فاطمة وهي تائهة بين تصديقه والإيمان به، وبين الشك الرهيب الذي تشعر به تجاهه.

"مجرد مضاعفات... لكن! ما الذي سيحدث في الفترة القادمة إذ أنّ هذه مضاعفات فقط؟!

توجّه شهاب الدين لطاولة عمله وبدأ يعمل، لكن قاطعه صوت نقر الباب، فكشّر متعجّبًا لأنه لم يدُقّ عليه أحد من قبل الباب؛ حيث أنّه يقطُنُ بعيدًا عن سكان المدينة، ففتح الباب فوجد أمامَه رسولًا من السلطنة عرفَه من ردائه، ويمد له ورقة ملفوفة قائلًا: "إنّها دعوة من السلطان"، فشكره وأغلق الباب وهو يفكّ دعوة المسابقة الخاصة بأدوية علاج السلطان.

قرأ شهاب الدين النصَّ السلطاني المكتوب به دعوة المسابقة بتمعّن واستغراب، حيث أنّه متعجّبٌ كيف قد وصلوا له؟ وكيف عرفوا أنه طبيب من الأساس؟! حسنًا وإن كان طبيبًا، هل يتم دعوة الأطباء للمسابقة أم الاشتراك بها من قبَلِهم؟! حاول أن يغلق على نفسه باب تساؤلاتٍ يشعُر بالخطر من فتحه أو غلقه، حيث أنّه يعلم جيدًا كيف يتم طبخ الأمور داخل السلطنة.

توجّهَ وهو يزفر لطاولة عمله، وحاول أن يركّز على ما كان يفعله قبل الدعوة المشؤومة، لكنّه شعر أن قلبه ينقبض، فنظر لفاطمة التي بادلته عينها نظراته وهي ممدّدة على السرير بجسدها الوَهِن، ثمّ فتح ورقة الصيغة الكيميائية للمحلول واستمر في عمله.

الحزن الذي يخيّم في الأرجاء

مشى سيف الدين الأنوري في طرقات القصر متوجهًا لغرفة السلطان ومعه سيننوري مساعده يجاوره خطاه، سأل الوزير سيننوري:

- كيف حال السلطان؟

سيننوري مغمضٌ عينيه بطريقته الأنثوية:

- سيدي أنا، إنه ضعيف، صحّته لا تسرّ عدو ولا حبيب.

- وما حال الأطباء الذين كلفناهم بصنع الدواء لجلالته؟ ألم يتقدم منهم أحد؟!

- بل تقدّم الكثيرون يا مولاي، لكنّنا نجهّز مكان المسابقة الآن.

قال وهو يترك سيننوري عند باب غرفة السلطان:

- إذن أقِمها بالسوق.. أو بساحة القصر.. أو أيّ شيء، المهم أسرع بذلك، كلما كان أسرع كلما كان أفضل.

ردّ بسخَطٍ غير محسوس:

- أمرك سيدي أنا، لكن ما بال السفَرِ لبغداد والحرب؟! ألم تكن مسافرًا بالجيش الليلة!

دلف الأنوري لغرفة صديقة نور الدين، ليجيل بنظره في الغرفة كلّها باحثًا عنه؛ ليجده متكوّمًا على سريره بجسد ضعيف ناظرًا للأسفل بنظرة انكسار؛ فأحزنه ما رأى، كفكَف الدمعة التي سالت على خده، وتقدم متنحنحًا حتى لا يظهر أثر بكائه على صوته.

- أخي، كيف حالك؟

أجاب السلطان بعدما رفع نظره عليه ببطء:

- سيف الدين! أخي! آخر الأصدقاء وأوفى الأوفياء.

- القائد الأفضل والصديق الأعظم، ما بكَ يا خورديّ؟

- الأحباب تركوني، والأصدقاء خانوني، والأشياء بغضَتْني حتى الموت.

- لا تقل هكذا، لا تتمنّ الموت!

قال وابتسامته تظهر على محياه باستهزاء ووهن:

- أتمناه..

ليضيف بصوت أجش:

- حتى لو تمنّيته فلن يأتي لي.

- بالطبع لن يأتي؛ فأنتَ لا زلتَ شابًا، ولا ينبغي لك أن تموت الآن، لن تبارحني ولن تبارح هذه الحياة حتى تتمّ العقود والأنياف.

- لا، لا أستطيع!

- بل تستطيع.. صدقني! فأنت أخي ولن أقدر على أي شيء من دونك.

- أنا..

- أنت مرهق قليلًا فقط، لا ترهق نفسك أكثر.

ضمّ الأنوري السلطان إلى صدره؛ فأحسّ بضعفِ وصغَرِ جسده؛ فاهتزّ جسده بالريبة، ورفع رأسه للأعلى حتى لا تسيل دموعه.

حينها ظهر الحزن في هيئة شبَحٍ وحام حول الصديقين، وأحاط محيطها بالخيوط السوداء الطويلة التي تخيّم الحزن واليأس عليهم، نظر إليهم نظرة تعطش وفرح كأنّه أسد جائع وجدَ أمامَه قطيعًا من الغزلان، احمرّ وجه الأنوري من البكاء الصامت؛ فقهقَهَ الشبح فاتحًا فمه الذي يغوص به دوامة سوداء، يشعر أنّه قد وجد ما يريد حقًا؛ ففتح فمه بأكبر اتساعة ليضمّه عليهم ويتحلّل في الفراغ.

***

رفع شهاب الدين رأسه من على طاولة عمله مفزوعًا مما نسجَهُ له خياله في حلمه القصير، ارتشَفَ رشفة من كوب الماء أمامه، ثمّ تأفّف وهو شارد الذهن، لتتسع عيناه فجأة وينهض مسرعًا لغرفة فاطمة، فوجدها نائمةً مستغرقة في حلم بائس، يبدو أنّها تصارع به من تعابير وجهها، حاول أن يفيقَها منه، لكنّه لم يجرؤ على الاقتراب منها! فوقف مترددًا لا يستطع فعل شيء سوى الشعور بالذنب، حيث أنّه كلّه خطأه من البداية؛ فهو كان بوسعه أن يطلق سراحها عندما رآها أوّل

مرة، لكنّه شعر أنّ هناك شيئًا ما يجذبه نحوها؛ فاستمر بربطها بجانبه حتى لا يتركها تُفلِت، بينما هي الآن حبيسة هذا الجسد الوهن، ولا تستطيع مباشرة حياتها منذ أن قابلته، وهو لا يستطيع أن يمنحَهَا وقتًا أفضل من هذا العذاب، في هذه المرة تجلّى له مظهره السوداوي الأعظم في حياته؛ فهو يعلم أنّه شخص سيء.. ترك والدته تعاني قبل موته من دون أن يفعل شيئًا، وترك أخاه وقت محنته حينما قُتلَت زوجته بمنظر شنيع بعد أن اتُّخذَت أسيرة في الحرب، والآن هو لا يستطيع أن يعذر أنانيّته فيما فعله بالشابّة الصغيرة، ولا أن يقول لنفسه "تلك مشكلتهم وأنا ليس بيدي شيء"، ماذا يفعل الآن بغروره؟! ماذا لو لم يكن هذا الدواء الذي اخترعه عقله الألمعي مجديًا فعلًا؟ ماذا سيحدث للفتاة؟! وماذا سيحدث لأخيه؟!

أنّبَ شهاب الدين نفسه ولم يستطع مغالبة ضميره الذي أدار معه حوارًا في محكمة المسجونين بصفته المسؤول الأكبر بكل تلك الويلات، بداية من الخطر المغولي على دولتهم الصغيرة المستقلة عن الإمبراطورية الشرقية بصفته وليّ العرش، ونهاية بأخيه وفاطمة، الشخصان اللذان أحبّهُما من كل قلبه ولم يستطع أن يحميهما.

قاطع تفكيره الأليم صرخة صغيرة متوجّعَة أحدثتها فاطمة وهي تستيقظ مفزوعة من حلمها، دنى إليها وهي تنظر إلى عينيه الدامعتين، شعرا هُمَا الاثنان بالاختناق، وبرغبةٍ في الموت، أدار وجهه عنها حتى لا تراه هكذا، وهي نظرت للأرض بيأس وهي تشعر أنّ السعادة قد رحلت عن الحياة.

قاطع هو يأسها حتى يهوّن الأمر عليها:

- هل نمتِ جيدًا؟!

رفعت عينها الدامعة من على الأرض ببطء:

- هل أنتَ بخير؟

نظر لعينيها الدامعتين وهو يقول:

- سأكون إنْ كنتِ بخير.

ابتسمَت ودموعها تسيل على خدَّيها:

- يجب أن تعيشَ أفضل من بعدي.

- لا حياة من بعدِك.

- لا تقل هذا.

- هل تعتقدينَ أنّه توجد لنا فرصة بحياة أخرى أفضل؟

- بالتأكيد، وستكون أفضل من هذه بكثير.

ثم أضافت وقد اختفت ابتسامتها من على محياها

- ولكن لا تنسَ أنني كنتُ معك بيوم من الأيام.

قال بجدية

- إذا كانت هناك حياة أخرى؛ فأريد أن أقابلَكِ أنت مرة أخرى، ولكن بظروف أحسن.

- هذه هي أمنيتي.

- هذا هو ما أريد أن أعدَكِ به.

- أريد أن أصدقك، هذا ما يريده قلبي.

- مساء الغد ستقام المسابقة التي يختبر بها الأطباء الذين يصنعون دواء السلطان، هناك سأقدّم دوائي لأخي، وحينها أستطيعُ أن أكون لكِ للأبد.

ثمَ اندفع تجاه طاولته وشرب القنينة المملوءة بالدواء القرمزي الخاص بالموت الذاتي بأكملها، ثم جلب لها أخرى ومدّها لها وهو يقول:

- أمسكي!

***

في يوم المسابقة..

تجمّع الناس في السوق مساءً؛ حيث الصخب وتكدّسُ النساء والرجال وهم يقفون أمام حاجز من جنود السلطنة، الذين يحيلون بينهم وبين المنصة التي سيختبر عليها الأطباء دواءهم على الطاولة المستطيلة التي عليها.

ظهر شهاب الدين وهو ممسكٌ بيد فاطمة التي تخْلُف خطاه، تمشي بخطوات رزينة متباطئة بجسد شِبْه متخشّب، ووجهها بارد خالي من التعابير، ويبرز جمال عينيها من خلف ثُقبَي اليَشْمَك.

ترك شهاب الدين محمود يدها عند حاجز الجنود، ومضى للمنصة هو ينظر لعينيها برضا؛ حيث يقول لها خلالها: "انتظريني! أنا قادم لأجلِكِ كما وعدتك".

صعد للمنصة وبدأ بصفّ أشياءَه، ثم جال بعينيه أمامه ليبحث عنها في الجموع؛ فوجدها في المقدمة تنظر إليه بلا مبالاة، ابتسم هو بخجل وأكمل ترتيب أدواته وأشيائه، حتى قاطعه صوت المنادي:

- يا أهل المدينة الخوردية الكرام، ستقام المسابقة الآن بين هؤلاء الأطباء الاثني عشر؛ حيث يُقطَع رأس الطبيب الخاسر، ويحظى الفائز صاحب الدواء الصحيح بألفَين من الدنانير، وعلى المسابقة أن تبدأ بمجرد نفخ البوق.

ظهر سيننوري من خلف المنادي وهو يترقّب شهاب الدين وفاطمة بحرص، ظهر السلطان المريض الذي نُقِل على محفّة يحملها العبيد، ووضع عنْها على كرسي كبير مزخرَف ومطليّةٌ حوافّه بالذهب، وما إن جلس حتى تكوّم جسده على الكرسي الكبير ظاهرًا وهنه وضعفه؛ حيث أنّه بدا صغيرًا على الكرسي.

وقع نظر شهاب الدين على أخيه السلطان؛ حيث شعر أن قلبه قد اهتز بداخله من سوء ما رآه بأخيه الأكبر، الذي اعتاد أن يراه قائدًا عسكريًا شابًّا جسورًا ذكيًا، لم يعتقد أن يأتي اليوم الذي يراه به بهذا الوهن والضعف.

شعر شهاب الدين بالصراع داخله، فقلبه يرى أنّ عليه أن ينقذ أخاه، لكن عقله يرى أنه عليه ألّا يغترّ بنفسه، وأنّه عليه أن يكفّ على تجربة الأدوية في الآخرين والعبث بحياتهم؛ فأخوه قد لا يتحمّل الدواء الذي سيصنعه؛ ففاطمة الشابّة قد أثّرَ هذا الدواء كثيرًا على عقلها وعظمها ونفسيتها، وجعلها غير قادرة على التحدث أيضًا، وعلى ما يبدو الآن أنّ قلبَها ليس على ما يرام، وأنّ شيئًا ما غريبًا يحدث بداخلها الآن.

قاطع البوق صراعه الداخلي معلنًا بدء المسابقة، حيث قال لنفسه متشجّعًا:

- سأنقذ أخي وفاطمة، وسأنقذ نفسي من العقاب أيضًا.

بدأ الأطباء بخلق الأدوية خاصّتِهم؛ فانغمس شهاب الدين في دوائه وهو يفكّر بوجه فاطمة البارد الذي أمامه، وفي وجه أخيه الذي يظهر العجز والضعف على من يكبره بثمانية عشر عامًا فقط.

وبعد ساعتين فقط نُفِخَ البوق ورفع الأطباء رأسهم عن الطاولة، وتقدم سيننوري نحوهم وخلفه خادم يحمل بين يديه صينية عليها مجموعة ورود كلّهم من نفس النوع، وتحمل أوراقهم نفس اللون

القرنفلي الجذّاب، عزَم على اختبار أدويتهم عن طريق وضع زهره بالدورق الذي جهّزوا به الدواء، وضع سيننوري الزهرة بدورق أول شخص على اليسار، بينما شهاب الدين هو ثالث شخص على اليسار، وما إن وُضِعَت حتى احترقت أوراقها؛ فأدار سيننوري وجهه نحو الجماهير قائلًا:

- كاذب.. خاسر.. تُقطَع رأسه.

فصرخت السيدات، بينما ضرب الرجال كفوفهم ببعض موحدين الله بصوت عالي "لا إله إلّا الله".

بينما ظلّت فاطمة مترقّبةً صامدة جامدة الملامح.

أخذه الجنود ووضعوه في سجن حديدي جلبه فرقَةُ جنود في الحال على الأرض الرملية للسوق؛ فجثَى الطبيب على ركبتيه بعينَين حائرتَين رافعًا وجهه للسماء.

مضى سيننوري -الذي كان يستمتع بالمشهد- إلى الطبيب الآخر، ووضع زهرة أخرى من الصينية بالدورق الخاص به؛ فتصاعد غاز غريب منه وتحول لون السائل من الأصفر للأزرق، فأدار سيننوري رأسه للجماهير قائلًا:

- كاذب.. خاسر.. تُقطَع رأسه.

فأخذه الجنود وسط صراخ النساء وتهليل الرجال إلى نفس السجن الحديدي الموضوع على الأرض الرملية مع الطبيب الآخر؛ فجثَى هو أيضًا على ركبتيه ناظرين لبعضهما البعض بيأس.

رفع سيننوري عينيه عنهما للجماهير قائلًا بلهجة محذرة:

- يجب على كل من يتقدم أن يعرف أنَّه ليس من السهل المضيّ بعد أن تتقدم لمسابقة من هذا النوع.

ثم أدار عينيه لشهاب الدين، ووضع عينيه على الدورق الذي به دواءه، ثم الْتَقطَ زهرة من الصينية بكِبْرٍ ووضعها بالدورق، حينها.. ساد الصمت ومدّت الناس رقابها متطلعين لنتيجة الاختبار؛ فتحول لون أوراق الزهرة من القرنفلي للأزرق ثم للبنفسجي ثمَ تحولت أوراقها لأغصان طويلة بعض الشيء، ثمّ عادت لأصلها.

ذُهِل الجميع مما حدث، واتسعت عينا سيننوري ممّا رآه، ورفع السلطان عينيه من على الأرض لينظر لشهاب الدين، الشخص الذي تألّم كثيرًا لفراقه، والشخص العزيز الذي لطالما تمنى دائمًا أن يراه عند مرضه؛ فنطق بصوت متهدج:

- ش ششهاب الدين محمود، أخي!

عجز شهاب الدين محمود عن الالتفات له في هذه الحالة؛ فاستغل سيننوري المشهد رافعًا صوته:

- هذا الدواء... إنّه..

فصرخ السلطان وكأنّ الحياة قد دبّت في جسده الذي يهتز مرة أخرى:

- أخي.. شهاب الدين.. وا خليلاه!

نظر شهاب الدين بذنبٍ إلى أخيه الذي قام من على الكرسي فاتحًا ذراعيه له؛ فغاص في حضنه واشتمّ الرائحة التي حَرم نفسه منها لسنوات في سبيل حلمه.

انتحَب السلطان وبكى شهاب الدين على صدره، بينما راقب سيننوري المنظر وهو يتمنّى لو أنّه يتخلص منهما الاثنين في هذه اللحظة، جال بعينيه وهو يفكّر بمكر؛ فوقَعَت عيناه على رأس الأفعى.

ظل الناس يترقبوا ما يحدث بين الأخوين وهم يهزون رأسهم ويمصمصون شفاهِهم بمعرفتهم ماذا حدث لابن السلطنة الذي اختفى لمَا يُقارب العقد، والقصص التي نشرت حين اختفاؤه في ظروف غامضة بعد الحرب، ومنهم من زعم أنّه قد قتله الجواسيس المغول، بينما أمسك سيننوري بذراع فاطمة وصعد بها للمنصّة.

"اسمعوا أيها الناس..

قال سيننوري وهو يمسك بذراع فاطمة ويرفعها لأعلى على المنصة.

أكمل وهو يرفع صوته: "تلك الجاسوسة..

الناس يشهقون وينتفضون.

"إنها جاسوسة للمغول... حقيرة..

نظر له شهاب الدين:

- إنها ليست جاسوسة.

- إذن.. من تكون هي؟

سأل بمكر.

- إنّها زوجتي.

- أين هو عقد الزواج؟!

- لا.. إنّها حبيبتي، وكنا سنتزوج بعد المسابقة.

- تقصد أنّها عاهرة!

شهق الناس واهتموا بالأمر، بينما صُعِق شهاب الدين من الكلمة محاولًا الدفاع عنها.

- لا تقُل هذا وإلا قتلتك.

قال وهو يضع سِنّ سيفه عند رقبة سيننوري.

سكت سيننوري بمكر ليتدارك الموقف لصالحه لوهلة.

- حسنًا.. حسنًا لا تغضب منا هكذا، دعنا نسأل الفتاة عن الحقيقة.

قال وهو يفتح ذراعيه.

- سيدتي الجميلة، هل هذا الشخص هو حبيبك؟

- لا...

أردفَت فاطمة ببرود.

- ماذا؟! ألا تحبينه؟!

قال سيننوري بصوت مرتفع ليشارك كل الحضور، بينما ظل شهاب الدين مصدومًا متألمًا من الكلام، ولكن سعيدٌ بنفس القدر؛ فقد وصل تأثير الدواء عليها للدرجة المطلوبة تمامًا، حتى أنّه سيطر على مشاعرها بأكملها.

- لا.. لا يا سيدي، لا أحبه.

- حسنًا.. حسنًا.. إذًا ماذا تفعلين هنا؟!

- أنا.. أضعتُ طريقي وأنا أهرب.

- ثمّ ماذا؟

- ثمّ لا شيء يا سيدي.

سيننوري:

- لا شيء؟!

- مررتُ بالكثير من العثرات في الطريق، وها أنا ذا.

- حسنًا.. هل ظَلَلْتِ كل هذه المدة بدون أي شيء؟!

- نعم يا سيدي.

أردفَت فاطمة وهي تجيب كالرجل الآليّ بدون مشاعر.

- يا سادة.. هل هذا يعقل؟ آخر إغارة للمغول كانت منذ 3 شهور على أقل تقدير، وها هي ذا بدون أي شيء.

نظرت هي ببرود لعينيه متعجّبة؛ فنظر هو إليها بندَمٍ، ليضيف سيننوري:

- إنّها بالتأكيد جاسوسة.. إنها خطر على السلطنة وخطر علينا نحن، خطر على أولادنا.. يجب عليها أن تُعدَم.

- لا.. لا يمكنك فعل هذا.

- أمسكوه.

رُبِط معصمَي شهاب الدين بحبل سميك من الخلف، وأمسكه جنديان بحزم.

- لا.. لا تفعل هذا.

أجاب وهو يحاول أن يفلت.

رفع سيننوري سيفه وأمامه فاطمة تنظر باستسلام لوجه شهاب الدين الذي يصرخ أمامها.

ثمَ شَقّ صدر فاطمة بسيفه لينظر الجميع بذهول على السائل الأحمر الغامق الذي سال من جانبي السيف وكوّن بركة على الأرض من الدماء الفاسدة، جثَت فاطمة على ركبتيها بفمٍ يسيل منه دمٌ داكن اللون، دنا شهاب الدين منها ووجهُه مشدوه تَبرُزُ عروقه منه من هول الصدمة، قالت هي بتقطع وتباطؤ؛ حيث جعلها هذا الإحساس بالألم

القوي تستعيد مشاعرها له مرة أخرى، وتشعر رغم قلبها المجروح بدَقّ قلبها عندما تراه أو تتذكر عبقه.

- تأكد من أن تكون بخير.

ثم أصدرت صرخة صغيرة مبحوحة من ثنايا حلقها، ثم صمتت للأبد.

صمت المكان كله، وقطَع صمته صراخ شهاب الدين، تأمل السلطان المشهد وهو يراه للمرة الثانية بحياته، ولكنه الآن يراه من بعيد! تجمّد فارغ الفاه، ثم ألقَى بجسده على كرسيه المذهَب؛ حيث بثّ عقله بسبب هذا المشهد أسوأ حادث مر به، حيث أنّه من عشر سنوات...

في وسط الصحراء ابتسم القائد الذي يرتدِي فوق رأسه خوذة مغروس بها قرنين حيوانيَّيْن، ثم قال له بدناوة بلسانه المغولي:

- ماذا يا خوردي؟ ألا تريد أن تشاركنا أشياءَك؟

جذب بيده شعر أسيرة من القفص ليجرّها على الرمل، وهو يضحك ويقول للرجل قوي البنية بجانبه:

- هيا ترجم ما أقول؛ لأذبحها وهو يفهم جيدًا كلامي.

ترجم الرجل الكلام جهرًا للسلطان الخوردي المربوط اليدين لخلف ظهره، اهتزّ معترضًا وحاول الفرار "لا..لا! لا تفعل، لا تفعل"، لكن اكتفى قائد المغول بالابتسام باستهزاء كرَدٍّ عليه، ثم قام بغرس السيف في رقبة صفية.. زوجته الجميلة، ورمَى بجثمانها على الرمال؛ ليكمل غرس السيف به بطرق عشوائية لتقطيعِه لقطعٍ أصغر أمام زوجها السلطان، ظلّ الأخير يتشنج ويصرخ ويتلوى مع كل غرسة، بينما أثار هذا ضحكَ وسعادة المغولي كثيرًا؛ حتى عكّر صفوه صوت خيول

جيش الأنوري الذي فاجأه من خلف جيشه، ليردف "وا خليلاه!" وبدأ في قلب الهزيمة نصر، لكن بعد وقت متأخر بالنسبة لخليلِه الخوردي.

فتح السلطان عينَه، ليرى شهاب الدين يضم جسد حبيبته إلى صدره، حيث تلطخ رداؤه بالدماء العَفِنَة، استمر في البكاء المدويّ الذي انتشر بأرجاء السوق، ذهب الناس جميعهم وهم يقلّبُون كفوفهم غير مباليين بأكثر من هذا، أخذ جسدها يتحلّل وينتشر عبقُه في الفراغ حتى زال بأكمله، اتسعت عينا شهاب المدمعتَيْن وظل متشبثًا بها حتى تحلّلَ بأكمله، ثم ظل راكعًا على ركبتيه في بركة من الدم ملطخ به بأكمله، ظل يصرخ ويصرخ والناس تمشي من حوله ناظرة إليه بشفقةٍ مقلّبِين كفيهم، لا أكثر!

شعر السلطان بانقباض في صدره، حاول أن يلتقط أنفاسه، لكنه لم يستطع، ليس إلّا أنّه شهق شهقة عميقة واحدة ورحل عن الدنيا.

- حتى إذا أردتُ أن أراها أو أن أزر قبرها... لن أستطيع.

قال السلطان للوزير ودموعه تسيل على خديه، ويتشنج جسده من الألم.

صمت شهاب الدين ذو الاثنَي عشرة سنة؛ ليستمع للحوار المحتدم داخل الغرفة.

- لم يعطوا لي فرصة أن أودّعها فقط.. لا أن أحميها، لا أستطيع أن أعيش من دونها؛ فهي مَن كانت تعطيني سببًا أعيش من أجله.

- حسنًا.. فلتهدأ قَلِ..

- لا.. لن أستطيع.

دلف شهاب الدين للغرفة وهو ممسكٌ بدميتِه الخشبية على شكل حصان.

- أأأخييي...

قال وهو يبكي ويهزّه بعد أن ترك الدمية من يده:

- أخي.. ما بك؟!

- لا شيء.. إنّه بخير.

قال سيف الدين الأنوري.

- لا.

- صدقني... انظر! ما هذه الدمية!

- لماذا يبكي؟! هل صفية لا زالت مسافرة؟!

- نن.. نعم لا زالت.

- ولم تعد حتى الآن؟!

تجمّد جسد نور الدين الخوردي.

- حسنًا.. أمسِك الدمية الآن واذهب للّعِب أيها الولد الجميل.

خرج مع شهاب الدين بهدوء، ونادى الخادمة لتأخذ الأخير، ثم أراح جسد السلطان نور الدين على سريره وأطفأ الشمعة وذهب.

تذكر شهاب الدين وهو عائد لكوخه -أينما يشعر أنه ينتمِي- بعينتين متلبدتين بالأحزان بعد الجنازة الخاصة بأخيه، شعر بعبَقِها يحوم حوله في كل مكان، لن يستطيع أن ينساها أو أن ينسى ما فعله بها، أو يستطيع أن يسامح نفسه بحجة المساعدة؛ إذ أنَّه عندما التقَطَها من الصحراء بعد إغارة المغول على قريتها، وضعَهَا على السرير الموجود في الغرفة بداخل الكهف وصدرها بالكامل ملطخٌ بالدماء، وهي تشعر بالإعياء.

حاول الحصول ع جوابها قلقًا:

- سيدتي.. سيدتي هل أنت بخير؟!

قالت بأعين متأرجحة مشوّشة:

- أين أنا؟!

- أنتِ بأمان هنا، لا تقلقي.

- أبي!... أبي، أنا آسفة حقًا، أنا آسِفَ...

تمتمت بدماغ ثقيل حتى فقدت الوعي تمامًا، وبعدما علم أنّ السم الموجود بالسهم يكاد يكون انتشر بالفعل بدمّها لم يكن لديه خيار آخر، نظر هو للأرض شاعرًا بالشفقة، ولم يجد ما عليه أن يفعل

حقًا؛ فتوجّه لحفرَةٍ محفورة تحت الأرض يمكن فتحها ببابٍ رأسيّ، مدّ كلتَي يديه بداخلها ليخرج صندوق خشبي من داخلها، وضعه على الأرض ثم فتحه؛ ليخرج منه قنينة كريستاليّة مملوءة بسائِل زيتوني اللون، ضمّهَا بقوة بيده، ثم توجّه إليها مباشرة ليحاول الحصول على استجابتها ووعيها مرة أخرى، وهو يضع أسفل رأسها يده ليرفعها.

- سيدتي.... سيدتي!

زفر متوترًا ليفتح القنينة بسبابته وإبهامه، ثم أفرغها بالكامل بداخل تجويف فمها، ثم وضع القنينة على الطاولة الصغيرة التي أمامه؛ ليقول "ليت ما فعلته هو الصواب حقًا!"

نظر إليها وهو يشعر بالقلق، ثم ظل يترقّب تعابير وجهها ليعرف مدى استجابة جسدها لهذا الدواء، ثم ضمّدَ كتفها الأيسر حتى يصوّر لها أنها إصابة بسيطة عندما تستيقظ هي، ثم غطّ تعبًا في نوم عميق.

وبعدما بدأت تستقرّ عنده وبدأت تشعر بتحسن ربطها بجانبه بكذبة أنّها هي من قَتلَ أهل قريتها -بدلًا من المغول-، وأنها وحش يؤذي من يراه؛ حتى يجعلها فأرَ تجربة يجرّب به الدواء يصنعه منذ سنوات، وهو ما سبّبَ لها الكثير من الألم الجثماني والنفسي، شعر أنّه بفعلتِه هذه أنّه قد انضَمّ لصفّ المرضَى الذين مصابون بمرض قد لا يُشفَى أبدًا، وزجّ بها في سجنه، ألا وهو مرض الحزن واليأس، الذي يمكّنه أن يحبسَك خلف قضبانه حتى الموت في بعض الأحيان، المرض الذي هو ضعِيفٌ أمامه ويخشاه جلّ خشية ويخاف أن يموت به، وَجَدَ أمامه قنينة الدواء ذي السائل القرمزي الذي كان يعطيه لها؛ حتى حال جسدها بهذا الشكل، أمسَكَ بها مقررًا أن يسلك نفس مسلكها، حبًا وانتقامًا، على رشفةٍ واحدة رفعها إلى فمه وأفرغها بأكملها، ارتطَمَ

كاملُ جسده بالأرض، صار جسده يتشنج وجلده يتغيّر، حتى ثبت على وضع واحد ثم تجمّد... سنوات وسنوات... حتى حانت مدة استيقاظه.

الحب... بين الحين والأمس

استيقظ د. شهاب متململًا ليلتقط هاتفه الذكي من جانبه ويتصفّح بريده وحساباته على مواقع التواصل الاجتماعي بملَل، ثم لاحظ رسالة الدردشة التي كان بعث بها إلى أسماء بالأمس بعد ما جرى بينهما، وقلبه يؤلمه؛ حيث يشعر أنّه لا يستطيع أن يمحوَ الأشياء السيئة التي تسبّب بها لها لا ماضيًا ولا حاضرًا، يشعر أنّها شبح يطارده في كل مكان لا يستطيع التنفس بسببه، ولا أن يأكل ولا أن يشرب، ولا أن يمارس حياته الطبيعية مثل بقيّة البشر، يشعر أنّه ليس له الحق في أن يمارس حياته بعد ما اقترفَهُ من ذنوب في حقها وفي حق أخيه.

وإذا به يلاحظ أنّها قد قرأت رسالته بالفعل، هو مرتبكٌ الآن ويتساءل كيف تشعر هي الآن؟! زفر ونهض عن سريره محاولًا أن يهدّئَ نفسَه، وتوجّه للمرحاض ليفرّش أسنانه، فسمع إشعار استقبال رسالة، ففتحها فوجدها تقول له:

"أنا.. لا أعلم ماذا أقول حيالَ البارحة، لكن.. "

شعر هو بارتباكها، فنقر على رقم هاتفها ليتصل بها؛ فهي تستطيع الآن أن تسمعه، حيث أن موقفها متغير الآن.

حاول هو أن يرتّب كلماته، في حين أنّها لم تسمح له أن يتحدث أولًا؛ فهي ما انفكّت تعتذر.

- أنا آسفة... آسفة حقًا.

قالت وهي تضيق عينها مرتبكة.

- هاه!

فتح فاهه متعجّبًا وهو يتأمل كلماتها التي تدخل أذنه بوضوح.

- لم أقصد أن يكون الأمر هكذا حقًا، أنا فقط كرهت أن تكون مثلهم.

- أنا..

- أنا أشعر بالأمان عندما تكون معي، وأحب وجودَك حقًا، وأريد أن أكون معك، لكن عندما قُلتَ لي هذا شعرتُ بخيبة أمل أنّك لا تشعر كيفما أشعر به، وكنت خائفة حينها.

- أوه.. حسنًا.. أنا..

- أنا.. موافقة!

بعد عدة شهور تجوّلت بابنَيْهما خلفه في مؤتمراته العلمية بعد بحثه العلمي هذا لدواء عن الموت الذاتي، وآخر عن الاستشفاء الذاتي؛ حيث جرّب اثنيهما على فاطمة، وهو الآن لن يندم على أي شيء، لكن هل مشاعر فاطمة موجودة في أسماء، أم لم تُنقَل مع جسدها رغم السنين مثلما حدث معه، أم أنّ أسماء ليسَت فاطمة من الأساس وإنّما شبيهتها فقط؟!

لا يعلم هو، لكنه أحبّ أسماء التي بها الروح التي يحبها، والتي لا ينكر أنّها تذكّره بفاطمة أيضًا، أم عليه هو أن يكتشف بنفسه إذا كانت أسماء هي فاطمة نفسها وانتقلت عبر الزمن مثلما انتقل أم لا؟!

تمت